الفصل الخامس

# غرب آسيا - بلاد بابل

## أقطار وأجناس آسيا الغربية

إن أهم مكان سكنه الانسان فى غربى آسيا هو ذلك الجزء المحصور بين الجبال فى الشمال والصحراء فى الجنوب ، وهو يكاد يكون حدودا تفصل هاتين المنطقتين وساعدتها الطبيعة لأن تصبح أرضا منزرعة ، وذلك المكان هو ما نسميه الهلال الخصيب (١) لأنه يكون شكلا نصف دائرى على وجه التقريب .

ويرتكز حرفه الغربى فى جنوب شرقى البحر الأبيض المتوسط ،ووسطه فوق شبه جزيرة العرب ويرتكز حرفه الآخر عند الخليج الفارسى وخلف ظهر هذا الهلال تقوم الجبال المرتفعة ، وعلى ذلك تكون فلسطين عند نهاية الجزء الغربى منه وبلاد بابل فى الجزء الشرقى بينما تكون بلاد أشور جزءاً كبيرا من وسطه .

وهذا الهلال الخصيب ليس إلا إمتدادا لصحراء العرب، وهو يشبه شواطىء جون صحراوى تحيط به الجبال ، ولكن هذا الجون ليس مملوءاً بالمياه ولكنه مملوء برمال الصحراء التى تمتد نحو خمسمائة ميل .

وفى أيام الربيع بعد ما تسقط مياه الأمطار تتحول مناطق كثيرة من هذا الجون الصحراوى إلى أرض مغطاة بالحشائش يتنازع عليها سكان الجبال وسكان الصحراء، كل يريد امتلاك ما يقدر عليه ويتصارع كل منهما على الفوز به ، وهذا الصراع ما زال يحدث إلى اليوم وكان يحدث فى جميع الأزمان. بل إن تاريخ غرب

---

١ – لايوجد اسم جغرافى أو سياسى يطلق على البلاد التى تتجمع فى نصف هذه الدائرة ، ونحن مضطرون عند الحديث على هذا الجزء من الناحية التاريخية كوحدة أن نجد اسما له ولهذا أطلقنا عليه فى كتابنا المقرر على طلبة المدارس الثانوية Ancient Times (Boston 1916) اسم الهلال الخصيب وأصبح هذا الاسم منذ ذلك العهد شائع الاستعمال .

آسيا ليس إلا تاريخا للصراع بين سكان الجبال وسكان الصحراء .

وحرمت الطبيعة بلاد العرب من الأنهار ولا تسقط فيها الأمطار إلا مدة أسابيع قليلة فى وسط الشتاء ولهذا فإن اكثر مساحتها أراض صحراوية وليس فيها إلا جزء صغير يمكن للناس أن يعيشوا فيه بصفة دائمة .

ومنذ أقدم الأزمنة حتى الآن كان سكان هذه المنطقة مجموعة من شعوب من الجنس الأبيض اسمهم الساميون ، وهم الآن ـ كما كانوا دائما ـ ينقسمون إلى قبائل متعددة لم تتحد فى تاريخها لمدة طويلة فتكوّن أمة واحدة متماسكة وتشبه فى ذلك هنود أمريكا الذين ينقسمون إلى قبائل مختلفة يعرفون بها مثل السيوكس (Sioux) أو السيمينول (Seminole) أو الاريكوى (Iroquois)

ومن أهم قبائل هذه الشعوب السامية اثنان يعرفهما كل فرد حق المعرفة وهما العرب والعبرانيون الذين يعيش أحفادهم بين ظهرانينا فى أمريكا .

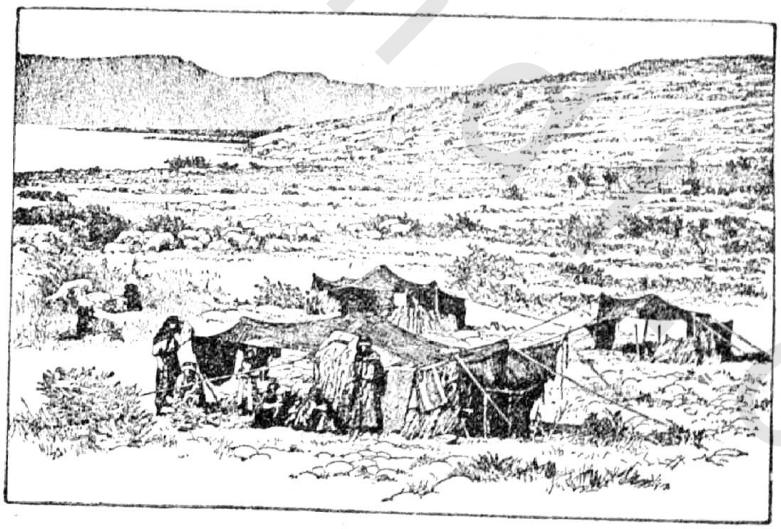

شكل : ٤٠ ـ بدو ساميون من سكان الهلال الخصيب على مقربة من بحر الجليلية

يستطيع هؤلاء البدو أن يحملوا خيامهم المصنوعة من وبر الجمل الداكن اللون من مكان الى اخر حيث يجدون أماكن جديدة للمرعى .

ويتكلم هؤلاء العرب والعبرانيون حتى الآن لهجات لغة واحدة فى الأصل ومازال العرب إلى يومنا هذا يفعلون مافعلوه أجيالا طويلة يسيرون وراء المرعى فى بلاد الجزيرة العربية وما جاورها . وعندما تجف الحشائش على حافة الصحراء كان هؤلاء البدو ، منذ أقدم الأيام ، يتركون رمال البيداء ليقيموا على حافة الأراضى المنزرعة ، فإذا أمكنهم أن يثبتوا أقدامهم ينقلبون على مدى الأيام من حياة البدو الرحل إلى حياة الزراعة ، وكثيرا ما كانوا يهاجرون إلى المناطق التى على حافة الصحارى فى جموع كبيرة . جموع تعيش حياة أقرب إلى حياة الهمجية وكانت تنزل على تلك البلاد كما ينزل السيل . ويتركون الصحراء ويذهبون إلى المدن ثم لا يلبثون حتى يطغوا على من فيها من سكان ، وقد تكرر ذلك مرات عدة خلال آلاف السنين نذكر منها هجرة العبرانيين إلى فلسطين كما تصفها التوراة وغزو جحافل العرب لمن جاورهم من الشعوب بعد اعتناقهم للدين الإسلامى ، ووصلت فتوحاتهم إلى أوربا وكادوا يطوقون البحر الأبيض المتوسط . فإن تلك القبائل السامية التى خرجت للغزو استقرت فى البلاد المختلفة على هيئة جاليات ثم أخذت تنتشر نحو الغرب على طول البحر الأبيض وشمال أفريقيا إلى أن وصلت إلى أسبانيا والمحيط الاطلانطى ، ولكن لم يتم وصولهم إلى الاطلانطى إلا بعد قرون عديدة ، ولنقصر الآن حديثنا على الساميين فى الصحراء ونبدأ بهم .

ففى فيافى الصحراء لا يعرف الناس حدوداً معينة والمرعى مباح لأول قادم ، مثل الهواء لا يمتلكه أحد . فليس بين رجال القبيلة الواحدة من يمتلك أرضا ، أو فيهم من يقال أنه غنى لأنه صاحب أرض واسعة أو فقير لأنه لا أرض له ، ولا يعرف أهل الصحراء قانوناً ، فإن البدوى ذا العين الفاحصة يرمى ببصره نحو التلال التى أمامه ناظرا إلى قطعان القبيلة الأخرى ويتمنى لو تصبح ملكه ، وهو يعلم أن ذلك يصبح محققا لو أنه ذهب وقتل الراعى الذى يجلس على مقربة من البئر ، ولكن

يمنعه من ذلك علمه بأنه لو أقدم على ما فكر فيه فإنه سيجلب الموت أو الدمار لأهله . وأن دم هذا الراعى لن يذهب هدراً ، وسينتقم أهل هذا الراعى له دون أن ينتظروا من الحكومة أن تفعل شيئاً لأن عادة الأخذ بالثأر مرعية الجانب بينهم وتوقف كل شخص عند حده ولها ما للقانون من أثر رادع .

وفى مثل تلك البيئة لا يمكن أن تقوم دولة لأنه لا يعرف أحد الكتابة أو حفظ المستندات وتكاد الصناعات أن تكون معدومة .

ويحيا رجال القبائل فى الصحراء حياة حرية مطلقة . وليس للحكومات القائمة فى بلاد العرب اليوم سلطة تامة على البدو الذين ينتقلون من مكان إلى مكان فى تلك البادية المترامية الأطراف وتشبه سلطتها عليهم ما كان للسلطات الأمريكية من نفوذ على رعاة البقر الذين لم يردعهم قانون .

وينتقل رجال هذه القبائل ومعهم قطعان أغنامهم على حافة الهلال الخصيب حتى تلوح لأعينهم مدينه من المدن تحف بها أشجار النخيل فيذهبون اليها ويقصدون سوقها ليشتروا السلاح والثياب وبعض الأدوات التى لا يستغنى عنها البدوى . وتعلم هؤلاء البدو منذ وقت بعيد نقل السلع من مكان إلى مكان فأصبحوا الناقلين للتجارة بين مدينة وأخرى ، ثم تقدموا بعد ذلك فصاروا أصحاب التجارة ، يتاجرون لحسابهم الخاص ويسافرون دون خوف أو وجل فى ذلك المتسع العظيم من الصحراء الذى يفصل بين سوريا وفلسطين وبابل وأصبح هؤلاء البدو أعظم التجار فى العالم القديم كما أصبح أحفادهم العبرانيون أعظم التجار فى أيامنا هذه .

والبرية وطن البدوى ، اعتاد على الحياة فيها وحيداً فصبغت روحه بالوقار ، وملأت خياله بكائنات لا يراها ولكنه يخشاها ، واعتقد أن تلك الكائنات سكنت فى كل شجرة أو صخرة وفى كل مرتفع أو عند مورد المياه . وكانت تلك المخلوقات هى آلهته التى أعتقد أن فى استطاعته التغلب على أذاها إذا ماتمتم

ببعض الألفاظ التى فيها قوة سحرية . كانت تلك التعويذات هى أقدم أنواع الصلاة ، وكان البدوى يعتقد أن تعويذاته تضمن له أن تلك الآلهة لا تصيبه بأذى بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فيعتقد أنها تجبر هؤلاء الآلهة ليقدموا له المعونة .

وتصور البدوى أن سلطة كل كائن من هذه الكائنات كانت تمتد على مكان محدود فى هذا الكون المترامى الأطراف ، مثل بئر وما حوله من مراع أما البئر التالى والذى لا يبعد أكثر من مسيرة يوم واحد فإنه كان تحت سلطان إله آخر لقبيلة أخرى ، لأنه كان لكل قبيلة إلهها الذى يعبده أفرادها وكان هذا الإله يسير مع أفراد القبيلة أينما ذهبوا يشاركهم فى طعامهم وفى أعيادهم ويقدم له كل شخص أول ما تلده أناث ماشيته وأغنامه . ولم ير ذلك البدوى المتنقل فى إلهه إلا إلها ذا خلق فج محب للقسوة وله عادات همجية طالما حملته على ذبح أبنائه ليرضيه ويتقى غضبه ومن ناحية أخرى آمن هذا البدوى فى قرارة نفسه بالعدل والحق وكان يؤمن بأن واجبه يحتم عليه أن يكون عطوفاً على زملائه واعتقد أن ذلك من أمر الله ، وأخيراً أصبح هذا الشعور نظرية خلقية عالية جعلت من هؤلاء الساميين المعلمين الدينيين للعالم المتمدن .

وفى عام ٣٠٠٠ ق . م كان الساميون قـــد أخذوا يتوافدون من الصحراء ليستقروا فى فلسطين فى الجزء الغربى من الهلال الخصيب ولم يأت عام ٢٥٠٠ ق.م حتى نراهم يعيشون فى مدن تحيط بها الأسوار . هؤلاء هم الكنعانيون أسلاف العبرانيين ، وكان هناك ساميون آخرون استوطنوا فى الشمال وفى الشرق أشهرهم الأكديون ثم العموريون فيما بعد . أما الفينيقيون فاستوطنوا الشاطىء الشمالى لسوريا ، وكان هؤلاء القوم بدواً رحلا كغيرهم ولكن لم يلبثوا حتى أخذوا يجوبون البحار وأصبحت ميناء جبيل (Byblos) من أقدم موانى فينيقيا وأهمها وكانت . غابات الأرز تتوج الجبال التى تقـــع خلفها ، وكان خشب هذه

الأشجار ثميناً وكان المصريون يحرصون على الحصول عليه مما حملهم على إنشاء الصلات التجارية بينهم وبين أمراء جبيل قبل عام ٣٠٠٠ ق . م .

وما وافى عام ٢٠٠٠ ق . م حتى كان الساميون الذين عاشوا فى الجزء الغربى من الهلال الخصيب قد وصلوا إلى درجة غير قليلة من الحضارة استمدوا أكثرها من مصر وبابل ، لأن هذه البلاد التى تقع على طول الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط كانت فى الطريق الذى يربط بين تلك المملكتين ، ولهذا كانت دائماً على صلة بكل منهما .

وإذا كان الساميون قد غزوا الهلال الخصيب من جنوبه أى من ناحيـــة الصحراء ، فإن سكان الجبال غزوه أيضاً فى شماله واتخذ بعضهم لنفسه موطناً فيه . ولم يكن هؤلاء الجبليون من الجنس السامى ولكنهم كانوا على كل حال من فروع مختلفة من الجنس الأبيض ، وقد تطاحن هؤلاء الجبليون مع القبائل السامية قروناً طويلة متنافسين على امتلاك الهلال الخصيب .

ونشأت أقدم الحضارات فى آسيا الغربية فى الطرف الشرقى من الهلال الخصيب فى وادى نهرى دجلة والفرات اللذين سنطلق عليهما من الآن اسم « الرافدين » وسيبدأ هذان النهران فى الجبال الشمالية ثم يصلان إلى الهلال الخصيب ثم ينحنى مجراهما متجهاً نحو الجنوب الشرقى ، وفى هذا المكان من بلاد الشرق أى على شاطىء الرافدين يمكننا أن نتتبع تاريخ بعض الشعوب القديمة فى مدى بضع آلاف من السنين ، ونرى تطور مدنيتها .

وينقسم تاريخ دجلة والفرات إلى ثلاثة فصول ، أقدمها تاريخ بابل فى الجنوب عند مصب النهرين . وعلى بعد ثلاثمائة وعشرين ميلا تقريبـــاً من الخليج

الفارسى [١] من المكان الذى يقترب فيه النهران من بعضهما ، ونرى هذين النهرين وقد تركا المناطق الصحراوية فى الشمال ويبدآن سيرهما فى وادىء واطىء خصب التربة كونته رواسب النهرين . وذلك هو الوادى المسمى أرض بابل الذى يكون الحد الشرقى للهلال الخصيب .

ولم تكن مدينة بابل ذات أهمية أثناء الألف سنة الأولى من تاريخ الميلاد ، وورد اسم الوادى فى التوراة تحت كلمة « شنعار » وسنستعمل هذا الاسم عند الحديث على العصور القديمة لتلك البلاد لأن اسم بلاد بابل لم يصبح علماً على الجزء الشرقى من الهلال الخصيب إلا فى بداية الألف الثانى قبل الميلاد ، فإننا إذا أصررنا على استعمال كلمة بلاد بابل فاننا نكون كمن يطلق اسم فرنسا عند حديثه على بلاد الغال فى أيام يوليوس قيصر .

وسهل شنعار لا يكاد يزيد عن أربعين ميلا فى العرض ، وتقل مساحته عن ثمانية آلاف كيلو متر مربع من الأراضى الصالحة للزراعة أى ما يقارب ولاية نيوجرسى فى الولايات المتحدة الأمريكية أو بلاد ويلس فى انجلترا . ومناخها تتبع مناخ البحر الأبيض المتوسط أى تسقط فيه الأمطار أثناء الشتاء فقط ثم تليها شهور الجفاف فى الصيف وكمية الأمطار ضئيلة وهى أقل من سبع بوصات فى السنة [٢] ولهذا تحتاج الحقول إلى الرى لينضج المحصول . وإذا وجد سهل شنعار من يعنى بشئون الرى فيه فإنه يصبح من أجود الأراضى ، وكانت الزراعة هى المصدر الرئيسى للثروة لسكانه فى الأزمنة القديمة .

---

١ ـ يصب نهرا دجلة والفرات فى الخليج الفارسى ويحملان معهما رواسب تملأ هذا الخليج عاما بعد عام . ومنذ الايام الاولى فى تاريخ بابل حتى الآن ملأ النهران من هذا الخليج مسافة ١٦٠ ميلا تقريبا

١ ـ مقدرة على حسب التقارير الانجليزية فى السبعة والثلاثين عاما التى تبدأ من عام ١٨٨٧ وتنتهى فى عام ١٩٢٤

# أقدم الحضارات الهامة فى وادى الرافدين

## « السومريون »

أثبتت الاكتشافات الأثرية أن أقدم الحضارات الهامة فى وادى الرافدين تطورت على يد قوم غير سامي الأصل ، لم نعرف جنسهم الأصلى على وجه التحديد حتى الآن ، وهم يسمون السومريون لأن المنطقة التى كانت لهم السيادة فيها من بلاد الرافدين كانت تسمى « سومر » .

ومن المحتمل أن هؤلاء السومريين كانوا قد بدأوا فى تجفيف المستنقعات التى كانت عند رأس الخليج الفارسى قبل عام ٣٥٠٠ ق . م وأخيراً امتدت قرى أكواخهم المبنية من الطوب الأخضر من المنطقة الواقعة فوق بغداد الحالية حتى مصب النهرين وبخاصة على شاطىء الفرات لأن مياه دجلة واطئه كثيرا عن الأراضى المنزرعة .

وتعلم السومريون كيف يحافظون على مياه العيون بعمل جسور لها ، عرفوا أيضاً توزيع المياه فى قنوات الرى ، وعرفوا حصاد محاصيل الحبوب . وكانوا فى تلك الأيام يزرعون الشعير والقمح وامتلكوا الماشية والضأن والماعز . ولعبت هذه الحيوانات دورا كبيرا فى حياتهم إلى الحد الذى جعلوا فيه إحدى آلهتهم الهامة على شكل بقرة واعتقدوا أنها كانت تحمى قطعان حيواناتهم . وكان لهذه الآلهة معابد كشف عن واحد منها على مقربة من مدينة « أور » منذ عهد قريب وعثر فيه على نقوش على الأحجار نرى من بينها مناظر صناعة الألبان لدى السومريين ، كما نرى فيها مناظر تمثل الثيران تجر المحراث أو الثيران والحمير[1] تجر العربات ذات العجل

---

١ ـ يوجد على بعض الآثار السومرية رسم لحيوان غريب الشكل اختلف فى وصفه على أنه كحصان أو كبغل أو كحمار آسيوى متوحش .

أو المركبات ، وقد رسمت المركبات مزودة بعجلات متينة حولها إطار من الجلد أو النحاس كما كشفت الحفائر عن بقايا مهشمة منها .

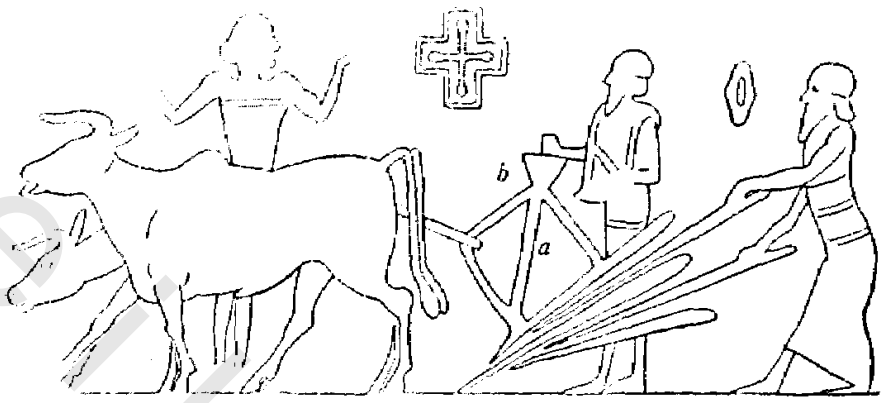


شكل : ٤١ ـ آلة بابلية قديمة لبذر الحبوب

نرى في هذا الشكل رسم آلة يجرها ثوران يمشي سائقهما الى جوارهما . ونرى خلف السائق رجلا يمسك بكلتا يديه هذه الآلة التي تحفر بسنها المدبب في الارض وتخط فيها عند سيرها . وفوق سن المحراث قناة رأسية ( أ ) في أعلاها قمع ( ب ) والى جانب الرجل الذي يقود هذه الآلة نرى شخصا ثالثا يسير بجواره يلقي باحدى يديه حبوبا من القمح في القمع بينما يضع يده الاخرى في غرارة للحبوب معلقة في كتفيه . وكانت الحبوب تنزل من القمح الى القناة ومنها الى الخندق الذي حفره السن المدبب للآلة . هذا الرسم منقوش على اناء حجري صغير ( نقلا عن كلاي )

وعرف السومريون صناعة المعادن في وقت مبكر وكان من بينهم صناع مهرة عرفوا كيف يطرقون النحاس وعرفوا طريقة صبه ، ونرى من تحليل بعض أدواتهم أنها تحتوي على نسبة عالية من الصفيح مما حمل بعض الباحثين على القول بأنهم عرفوا في وقت مبكر صناعة البرونز الذي كان أكثر صلابة من النحاس .

وصنعوا من النحاس أسلحة وآلات ، وأدوات للزينة وغيرها كما صنعوا أيضاً تماثيل للمعبودات ، وإلى جانب النحاس توصلوا أيضاً إلى معرفة الذهب والفضة والرصاص . وكونت الزراعة وتربية الماشية الجزء الأكبر من الثروة التي كانت أساساً للحياة السومرية . ومع ذلك لم يأل السومريون جهداً في التقدم بصناعاتهم ولم يقف بهم الأمر عند حد الموارد الميسورة لهم بل استوردوا

الخامات من بلاد أخرى . وساعدهم صوف الأغنام على تطور صناعة النسيج والحصول على ملابس صوفية بالرغم من أن الازار الذى نراه حول وسط السومريين فى الرسوم كان على الأرجح من جلد الغنم .

ونشطت تجارة هؤلاء الناس مع غيرهم من أمم آسيا الغربية وكانت سلعهم التى حملوها إلى تلك البلاد عبارة عن الأدوات المصنوعة من المعدن والبضائع الصوفية وبعض الحاصلات الطبيعية كالبلح والحبوب كما أثبتت الأبحاث أن هذه التجارة وصلت غرباً حتى البحر الأبيض المتوسط وشرقا إلى مصب نهر السند وقد قام الدليل بصفة قاطعة على وجود الصلة التجارية مع وادى السند [١] من العثور فى خرائب المدن القديمة فى سهل شنعار على أختام وأوان وخرز من صناعة سكان وادى السند القدماء . أما فى ناحية الغرب فإن تجارة بلاد الرافدين كانت تتلاقى وتتداخل مع تجارة مصر فى بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ومن المحتمل جداً أنها كانت تصل إلى مصر نفسها . ولا شك أنه كانت هناك صلة بين مصر وبلاد الرافدين ، لأن كلا من الحضارتين كانت تُخرِج أشياء مصنوعة متماثلة الطراز وذات أشكال خاصة ، مثل دبوس القتال الذى على شكل الكمثرى ، والأختام الأسطوانية واستعمال حيوانات مرتبة فى أشكال خاصة فى الفن الزخرفى فى كل من الحضارتين .

---

١ — كشفت حفائر السير جون مارشال (Sir John Marshall) التى قام بها لحساب مصلحة الآثار الهندية فى السند والبنجاب عن وجود بقايا حضارة مبكرة يرجع تاريخها الى عام ٢٥٠٠ ق.م. وكان فى هذه المدن منازل مكونة من طابقين على الاقل ومبنية بالطوب الاحمر . وكان فى هذه المنازل حمامات وكانت فيها أنظمة دقيقة لتصريف المياه . وكانت بعض الحيوانات تجر مركبات على عجلتين واستعملوا الفيلة الاليفة فى حمل الاثقال . وبالرغم من أن النظام الاقتصادى لوادى السند قام على الزراعة فان الصناعة كانت مزدهرة وقام صناع المعادن بصنع أدوات من النحاس جعلوها أوانى وأوعية من الفضة . وعرفوا أيضا الزجيج وأظهروا فيه بعض المهارة . وصنعوا أختاما حفروها بمهارة ودقة تثبت لنا أنهم عرفوا الكتابة .

وكان سكان وادى السند معتنين الى حد كبير بالتجارة ولا بد أن قوافلهم كانت ترحل نحو الشرق بصفة منتظمة مخترقة تلال بلوخستان حيث عثر العلماء على مدن شبيهة بمدن وادى السند .

وقد عثر العلماء فى حفائرهم ، فى آسيا الغربية على آثار تثبت أن هذه التجارة قد امتدت الى الربع الشمالى الغربى أى الى البلاد الواقعة حول شاطىء البحر الابيض المتوسط .

وقادت التجارة وإدارة الحكومة هؤلاء السومريين فى عصر مبكر إلى إثبات بعض البيانات بواسطة حفرها حفراً سطحياً بالجزء المدبب من نبات الغاب فوق سطح مستو لقطعة من الطين اللين فإذا وضعوا الطين فى الشمس جفت وأصبحت صلبة ، فإذا ما وضعوها بعد ذلك فى فرن لحرقها فإنها تصبح لوحة فخارية تكاد لا تتعرض للفناء ، وأبقت الأيام على بعض اللوحات الفخارية التى يرجع تاريخها إلى أقدم العهود ونستطيع أن نميز بسهولة الصورة الأصلية لبعض العلامات التى جاءت فى كتاباتهم . ونحن نسمى الآلة التى كتبوا بها على الطين بالقلم (Stylus) وكان بعض هذه الأقلام يصنع من شرخة صلبة من نبات الخيزران ولكن بعضها كان من العظم أو الخشب .

وفى بعض النقوش نرى كاتبا وفى يده قلم ، وكان مثل هذا الكاتب لا يحفر خطوط صورة وإنما كان يلتجىء إلى طريقة أخرى، فإذا أراد مثلا أن يرسم خطاً فإنه كان يرفع قلمه ثم يضغط على حافته فيغمسها فى الطين ثم يرفعه مرة ثانية ويضع حافته مرة أخرى إلى جانب الأولى وهكذا ، وإذا تأملنا شكل القلم نجد حافته على شكل يشبه المثلث أو المسمار لأن رأسه أعرض من الناحية الأخرى ، وكانت كل علامة أو صورة تكتب بمثل ذلك القلم تصبح مجموعة من علامات مركبة من خطوط يشبه كل منها المسمار ونحن نسمى هذا النوع من الكتابة مسمارية نظراً لشكلها ( مسمارية ترجمة لكلمة Cuneiform وأصلها من Cuneus اللاتينية ومعناها مسمار ) . ولم يطل الزمن حتى أخذت الصور المرسومة بهذا النوع من الكتابة تبعد عن شكلها الأصلى فتصعب معرفتها حتى جاء الوقت الذى لم يعد للشبه بين العلامات المكتوبة وأشكالها الأصلية أى وجود .

ووصل الأمر بالكتابة السومرية أن أصبحت تحتوى على ستمائة علامة منها علامات معنوية ومنها علامات صوتية ، وكانت الأولى تمثل الآراء أو الأشياء

والثانيه تمثل الأصوات ، وكانت تستعمل كمقاطع فى الكلمات وكانت بعض الكلمات تتكون من أكثر من علامة صوتية يضاف إليها فى أغلب الأحيان علامات معنوية لتكون مخصصة لها . ولم يتطور عن هذه الطريقة السومرية أبجدية حروف لتحل محل المقاطع أى أنه كانت هناك مقاطع مثل « كر » ، « بن » ولكن لم توجد علامات للحروف ك أو ر أو ب أو ن التى كونت هذه المقاطع ، ولهذا لا يمكننا أن نقدم للقارىء أبجدية كما فعلنا عند حديثنا على الكتابة المصرية (١).

وترينا تلك المدونات التى على الطين أن السومريين اعتادوا أن يبدأوا شهورهم مع كل قمر جديد وأن السنة كانت تتكون من اثنى عشر شهراً قمرياً ، ولما كانت مدة الأثنى عشر شهراً قمرياً تقل فى طولها عن السنة الحقيقية ، فإن الكاتب السومرى اعتاد أن يضيف على السنة شهراً إضافياً كلما وجد أنه وصل إلى نهاية السنة التقويمية قبل الفصول بشهر أو مايقرب منه .

وورث اليهود والفرس هذا التقويم الخاطىء غير العملى وما زال سائداً بين يهود الشرق والمسلمين . ولم يكن السومريون يعدون السنين بل كانوا يفعلون ما فعله المصريون فى مستهل حضارتهم ، وهى تسمية كل سنة باسم حادث هام وقع خلالها .

وكان للسومريين نظام فى حساب الأعداد يخلط بين النظامين العشرى والستينى ، وكان لديهم علامات لرقم واحد وللعشرة وللستين ، وكانوا يضعون هذه العلامات حسب قيمتها ، كما نضع أرقامنا ، ولكن حسب ترتيبها فى أرقام مفردة وعشرات وستينات ، بدلا من أرقام مفردة وعشرات ومئات ، ولكنهم لم يعرفوا الصفر .

أما وحدتهم الأساسية فى الموازين فهى الـ « مينا » وتنقسم إلى ستين « شِكل » وكل ستين « مينا » تزن « تالنت » ، وظلت هذه الأوزان سائدة فى العالم القديم حتى أيام اليونان وكانت المينا تزن رطلا من أوزاننا الحالية ، إذ وصلت هذه الوحدة إلى

---

١ ـ اقرأ قصة حل رموز اللغة المسمارية فى الفصل السابع من هذا الكتاب .

العالم الغربى من صلته بالشرق .

وكان مركز الحياة والثقافة السومرية فى المدن ، وكان المعبد فى المدينة هو نواة حضارتها والمركز الرئيسى فيها ، يقوم فى وسطها تحيط به الأسوار الضخمة التى تفصله عن باقى اجزائها ، وفى داخل تلك الأسوار قامت أماكن العبادة ومخازن المعبد والمكاتب ، يشرف عليها جميعا الكهنة الأغنياء يعاونهم الكتبة الذين كانوا يؤجرون ويرعون أملاك المعبد . وقام المعبد مقام البنوك لأن الكهنة كانوا يقرضون الناس باسم الإله، ويتقاضون الأرباح باسم الأله أيضاً .

وكان برج المعبد يعلو فوق كل المبانى ، وكان شكله على وجه التقريب مثل مكعب ولكن يقل عرضه كلما ارتفع . وحول هذا البرج ثلاث مدرجات من سلالم ضخمة مبنية حول الجدران تصل بالزائر الى الباب فى منتصف البرج فوق باب المعبد . وفى بعض الأحيان كانوا يزرعون الأشجار فى مستويات مختلفة حول هـــذا البرج ، ينقلون اليها الطمى ويجعلون منها حدائق جميلة فى مدرجات على ارتفاعات متعددة . وفى أعلا البرج معبد مربع الشكل، فيه بهو لاسقف له ، وخلف البهو مكان مقدس ومن أهم المعابد ذات البرج تلك التى قامت فى مدينة نيور (Nippur) لتكون حرماً لإله الهواء « إنليل » (Enlil) مما جعل من مدينة نيور بلداً ذاقدسية خاصة بين جميع المدن السومرية .

ولما كان هذا النوع من المعابد مبنيا على شكل يجعل جوانبه تنحدر إلى الداخل كلما ارتفعت عن الأرض فتصبح قريبة الشبه بالجبال ، وكان السومريون أنفسهم يسمونها « بيوت الجبال » ، فمن المعقول أن أهل سهل شنعار أرادوا أن يبنوا لآلهتهم بيوتا تليق بهم فوق جبال صناعية . وكان المعبد ذو البرج الذى بنى فى مدينة بابل فيما بعد سببا لنشأة قصة برج بابل التى جاءتنا عن طريق القصص العبرانى . ولاشك أن طراز تلك المعابد كان له أثر رائع فى نفس كل من وقعت عليه عيناه وكان

نوعا جديدا فى العمارة وصل اليه السومريون وأصبح ذا أثر كبير فى الطرز المعمارية (١) .

وكان يقوم معبد آخر إلى جوار المعبد ذى البرج ، وكان هـــذا المعبد القليل الارتفاع هو المعبد الأساسى وكان بسيطا فى نظامه إذ لم يحتو إلا على بهو يليه الهيكل وكان الفلاحون يأتون إلى هذا الهيكل القائم تحت ظل المعبد ذى البرج يحملون قرابينهم من الحبوب والبلح والتين والزيت واللبن والعسل وكذلك بعض الحيوانات . وكانت توضع هذه الأشياء فوق موائد القرابين وكان يؤخذ جزء منها ليكرس أمام الإله أو بعبارة أخرى أمام تمثاله .

وفى خرائب هـذه المعابد عثر الأثريون على أنواع كثيرة من الأدوات التى كانت تستعمل فى العبادة وعلى الأوانى التى كانوا يضعون فيها السائل ليصبوها على القرابين أثناء الصلوات ، كما عثر الأثريون أيضا على مناظر يرجع تاريخها إلى ذلك العصر وعرفنا من دراستها ، أنه كانت تقوم فى تلك المعابد احتفالات ذات معانى رمزية .

فمثلا كانوا يضعون جريدة من جريد النخل ومعها بعض شماريخ البلح فى إناء

---

١ — لم يبق الا القليل من بقايا تلك الابراج البابلية واختلفت الآراء فى معرفة شكلها الاصلى معرفة لايدخلها شك . ومنيل الحرب العالمية ( الاولى ) عثر مرة اخرى على لوحة مسمارية من عصر متأخر سطر عليها أبعاد برج بابل .

وتمكن كولدوى Koldwey الذى قام بحفر خرائب مدينة بابل ووجد القاعدة المربعة للمعبد أن يرسم رسما تخيليا لما كان عليه المعبد ذو البرج عند بنائه . وساعده فى ذلك عثور البعثة الامريكية الانجليزية تحت رئاسة الاستاذ وولى (C.L. Woolley) على بقايا برج مماثل حفظت فيه أجزاء من مدرجات السلالم الثلاثة فى مدينة « أور »

ومات كولدوى فى أوائل عام ١٩٢٥ ووافى المشرفون على أعماله على السماح بنشر الرسم شكل ٧٠ فى هذا الكتاب وهو رسم يمثل برج بابل كما كان فى العصور القديمة ومما يجدر الاشارة اليـــه أن الاستاذ وولى وزملاءه نشروا رسما فخما لمعبد أور كما كان فى أيام السومريين .

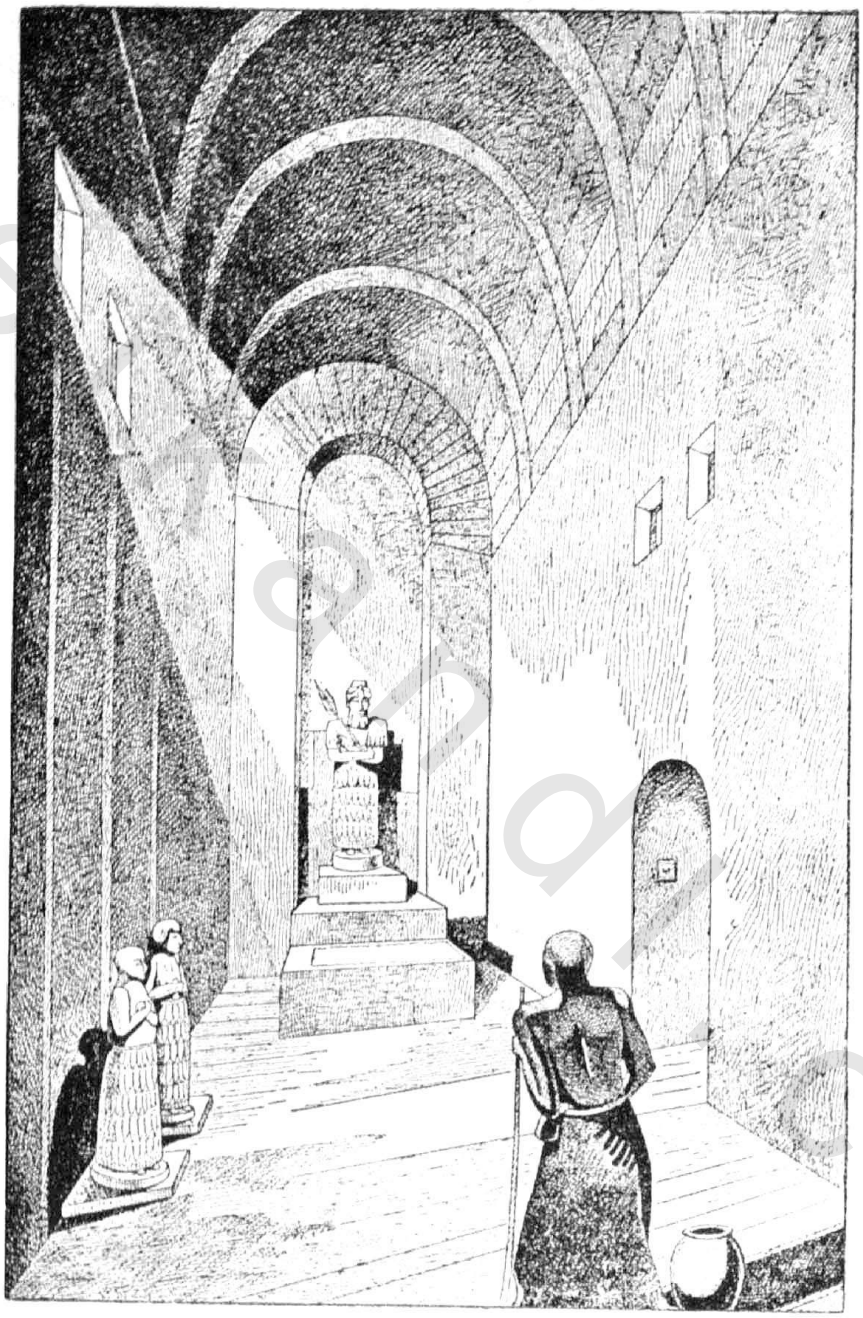

شكل : ٤٢ ـ منظر داخلى فى أحد المعابد البابلية من ( الالف ) الثالث ق.م
من حفائر المعهد الشرقى بجامعة شيكاجو ـ صورة لما كان عليه المعبد فى الزمن
القديم ـ من رسم سيتون لويد (Seton Lloyd)

م يصبون فوقها المـاء . والتفسير المحتمل هو أن ذلك يمثل فضل الإله على البـلاد فهو الذى يرسل الفيضان كل سنة فى النهر لتبقى الزراعة فى الأرض . ونحن نستطيع أن نفرض أنهم كانوا يقومون بعمل أمثال هذه الطقس الدينى ووضع الهدايا والقرابين أمام آلهة الأرض وما عليها من نباتات ولآلهة الهواء والسماء والبحر ويصحبونها بأدعية ليأتى المـاء وفيرا ويكثر المحصول . ويدعون أيضا أن تجنبهم الآلهة مصائب الفيضان المدمر مثل الفيضان الذى أرسله الإله مرة فخرب كل شىء ، ذلك الفيضان الذى كان الناس يتناقلونه عن آبائهم وأجدادهم ووصلت أخباره إلى العبرانيين .

واختلفت ديانة السومريين عن ديانة المصريين فى نقطة هامة . وكان السومريون يدفنون موتاهم فى أغلب الحالات تحت أرضية بهو المنزل الذى يعيشون فيه أو تحت

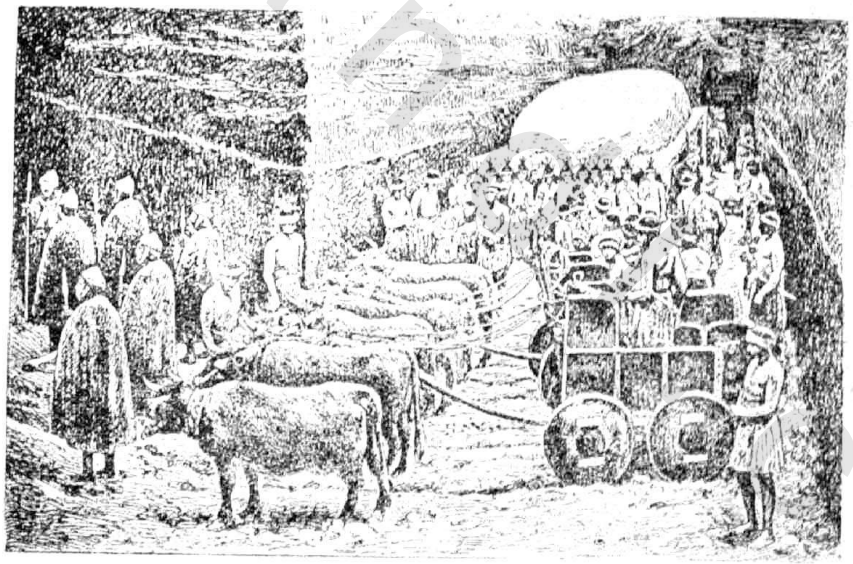

شكل : ٤٣ ـ أهل بيت أمير ، أور » ينتظرون الموت على باب مقبرته

عثرت البعثة الانجليزية الامريكية تحت رئاسه وولى أثناء حفائرها فى أور على أجسام هؤلاء الرجال والنساء والحيوانات وما معهم من أشيـــاء على باب مقبـره الامير . وقد تمكن الفنان الحديث بارشاد الاثريين من أن يتخيل هؤلاء جميعا وقد وقفوا على استعداد لقتلهم ، وقف كل فى مكانه الذى عثر فيه على جثته . وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن قتلهم على هذه الصورة يمكنهم من الانتقال الى العالم الاخر ليظلوا فى خدمة سيدهم هناك .

إحدى الحجرات ، ولو أنهم فى بعض الحالات كانت لهم جبانات خارج المدينة . أما عقيدتهم فى الحياة بعد الموت فانها كانت غامضة وكانوا يتصورون أن الموتى يعيشون فى مكان مقبض تحت الأرض ملىء بالظلام والتراب ، يذهب إليه الناس جميعا لا فرق بين صالح ومجرم ، وانتشرت بينهم عقيدة بأنه إذا مات إنسان فانه سيحتاج فى حياته الثانية إلى أهل بيته ، فحرصوا على أن يضعوا معه ما يجنبه الحياة فى العالم الآخر بدون خدم وحيوانات . وقد رأينا فى حفائر مقابر أمراء أور الأوائل جثث الحرس والخدم من رجال ونساء والثيران ما زال مشدودا عليها فى المركبات ، قتلوها جميعا على باب حجرة الدفن لتلحق بسيدها ولتستمر فى خدمته بعد الموت .

وانتشرت بيوت الأهالى حول المعبد وكانت مستطيلة الشكل ومبنية بالطوب اللبن . وكان البيت ـ فى أقدم العهود ـ يحتوى على قاعة رئيسية فيها أبواب توصل إلى الحجرات الأخرى . وفى العصور التالية كان يتوسط المساكن فناء غير مسقوف ولهذا كانت تلك المساكن ظليلة غير حارة ومناسبة لمناخ البلاد . وكان الضوء يغشاها من نوافذ على مقربة من السقف أو من أبواب ذات عقود عالية تفتح على فناء الدار . أما المدن فكانوا يقيمونها فوق أكوام صناعية ، ولم يكن يزيد عرض إحداها عن بضع مئات من الأقدام ولكنها اتسعت مع مرور الزمن وزاد عدد سكانها ، ولكنها مع ذلك ظلت دائما محدودة ولم تنم واحدة منها نمواً كبيرا كما نعهده الآن فى المدن الهامة .

كان الطوب اللبن هو المادة الأساسية لجميع المبانى العادية فى العالم القديم ، وكانت مساكن الفقراء فى بلاد الشرق القديم ، وما زالت حتى الآن ، تبنى بهذا النوع من الطوب . ويؤثر المطر كثيرا على جدران المساكن ولا تلبث أن تتهدم بل إن بعضها ينهار إذا أمطرت مطرا شديدا فى يوم من الأيام . وإذا حدث ذلك فى أيامنا الحاضرة

فإننا نرى أن أصحاب هذا المسكن يسوون الأنقاض ويبنون مسكنا جديدا فوق مسطحها ، وهكذا فعل من سبقوهم خلال آلاف السنين فأصبحت المدن بعد مرور القرون كوما عاليا من الأنقاض تعلوه البلدة التى يسكنها الناس . وهناك فى كثير من بلاد الشرق ما زال السكان يعيشون فوق أنقاض مساكن آبائهم وأجدادهم ، ولكن هناك أيضا كثير منها هجره سكانه وأصبح أكواما خربة ، نرى من أمثالها الكثير فى جميع بلاد الشرق الأدنى مثل كوم طروادة فى آسيا الصغرى ، وتل مجدو فى فلسطين ومدينة الفنتين فى مصر .

وكانت الرُقم ـ أى اللوحات الطينية ـ التى تسجل حسابات المنزل والخطابات والمطالبات والإيصالات والمذكرات ، تظل تحت أكوام المساكن التى تتهدم وتغطيها أنقاض الجدران ، أما المعابد والمبانى العامة فإن الرقم التى تظل فيها كانت تحوى فى أغلب الحالات مدونات حكومية هامة ، وفى مساكن الحكام وفى مكاتبهم توجد رقم تحوى قصص الحرب والغزو .

وكثيرا ما كان يهتم أحد الحكام بتدوين وثائق تتعلق بتشييده للمعابد أو للقصور ووثائق عن انتصاراته وأعماله العظيمة ، وكان يضع أمثال هذه الرقم فى أساس مبانيه حتى يتسنى لمن يأتى بعده من الحكام أن يجدها ، وليست هذه الرقم هى كل ما يمكن العثور عليه مدفونا تحت تلك الأكوام بل غالبا ما يعثر الأثريون هناك أيضا على قطع فنية منحوتة .

وتحت هذه الأكوام ما زالت بقايا المساكن البابلية ذاتها . ولكن الحجر لم يستعمل إلا نادراً فى مبانى تلك المدن التى تهدمت . ومع هذا فان كوم أى مدينة منها غنى بما بقى فيه وهو مستودع للحضارة البابلية القديمة .

فمن خرائب المدن السومرية ، عرفنا كيف كانت الحياة فى شوارعها المزدحمة وعرفنا أن أهم طبقات السكان هم الملاك الأحرار ، الذين كانوا يملكون الأراضى التى

يعمل فيها أرقاؤهم أو التجار الذين كانوا يملكون القوافل أو يرسلون بضائعهم فى القوارب التى تغدو وتروح فى النهر ، هؤلاء هم الطبقة المتوسطة ، ولكن الموظفين والكهنة كانوا الطبقة الإرستوقراطيه فى المدينة . وكانت كل مدينة من هذه المدن وما حولها من حقول ، تمتد إلى مدى بضع أميال وتكون وحدة سياسية مستقلة أو ولاية يحكمها ملك ، وتدلنا الوثائق المكتوبة وغيرها من الآثار على نوع الحياة التى كانت تسير عليها تلك المدن السومرية القديمة ، ونعرف منها أيضا ما أحرزته من تقدم مدى أربعة قرون . وقد بدأت هذه الوثائق منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل عام ٣٠٠٠ ق . م ، وفيها نرى فضل الحكام السومريين على تلك المدن رغم ما كان يعانيه الناس من فداحة الضرائب وما سببته من ظلم ، فقد كان حاكم المدينة ذا نشاط خاص فى أيام الحرب ، زيادة عما تفرضه عليه الواجبات الدينية الكثيرة ذات الظاهر المتعددة ، وكان من أهم واجباته العناية بكل شئون الرى ، لأن القنوات والجسور كانت فى حاجة مستمرة إلى الإصلاح فلو أهملت لتعرضت الحقول إلى الجفاف والمحاصيل إلى الضياع وتنتشر المجاعة بين الناس إذا توقف جريان المياه .

وتقص علينا هذه الوثائق قصة أكثر من واحد من هؤلاء الحكام وتصوره لنا وقد خرج للحرب على رأس جنوده المدججين بأسلحتهم يسيرون فى كتائب ذات صفوف متراصة أو يحملون على أعدائهم فى مركبات ثقيلة ذات عجلات أربع ، فقد كان السومريون أقدم شعوب العالم فى تنظيم الحرب وجعلوا منه فنا رفيعا .

كانت الدويلات السومرية متعددة وحدودها متقاربة ، ولهذا كانت الحروب بينها كثيرة ولم تتمتع بالأمن فترات طويلة لأن كل دويلة منها كانت تحاول أن تستولى لنفسها على جزء من أراضى غيرها وكان سكان المدينة يسارعون وراء مليكهم لطرد المعتدين ، ولهذا فمن العبث أن نتحدث بشىء من التفصيل عن التاريخ

السياسى خلال هذا العصر المبكر .

وعثر على أجزاء من قوائم بأسماء ملوك بعض الدويلات السومرية ، وهى لأسماء الحكام الذين خلف بعضهم بعضا وكانوا القوى المسيطرة فى ذلك السهل الذى أصبح يسمى بلاد بابل فيما بعد ، وليس من المعقول أن نقبل تسلسل الملوك كما جاء فى القوائم ، لأنه كثيرا ما كان يحدث أن مدينتين أو أكثر كانتا قويتين فى مكان محدود أى قريبة من بعضها ومعاصرة لبعضها ، وفضلا عن ذلك فإن الزمن المدون فيها لمدة حكم بعض الملوك طويل جدا إلى حد لا يمكن تصديقه ، ولكن بالرغم من أن هذه الجداول ناقصة جدا فإنها تحوى بعض الحقائق التى أكدتها الإكتشافات الأثرية فى أور والوركاء ونيبور وأدب وغيرها . ولنأخذ مثلا مدينة أور التى ذكرت فى قوائم الملوك بأنها ثالث دويلة بعد الفيضان ، إذا سبقها كيش والوركاء .

ظهرت فى حفائر أور ونيبور نقوش تشير إلى حكام فى أور برزت أسماؤهم فى قوائم الملوك الخاصة بذلك العصر ، وكان أول ملك فى هذه المجموعة هو الملك « مس ـ أنىّ ـ پادّا » وقد خلفه ابنه « آن أنىّ پادّا » الذى بنى معبداً صغيرا للآلهة البقرة فى ضاحية من ضواحى أور وسجل هذا العمل على لوحة من المرمر وضعت تحت أساس المعبد ، وحكم بعد « مس ـ أنىّ ـ پادّا » أربعة ، وكان هؤلاء الملوك الخمسة هم الأسرة الأولى من ملوك أور .

وكشفت حفائر البعثة الإنجليزية الأمريكية فى خرائب مدينة أور عن مدفنة بلغت حدا عظيما فى وقت مبكر جدا . فقد عثر رجال هذه البعثة تحت أنقاض المبانى المتهدمة على مقابر لأشخاص ذوى أهمية كبرى من المحتمل جدا أنهم كانوا حكام تلك المدينة ، تلك هى المقابر التى سبق أن تحدثنا عنها ورأينا رسمها فى شكل ٤٣ .

بنى أهل أور القدماء تلك المقابر من الطوب اللبن والأحجار وكانت محتوياتها تنافس

فى الفخامة ما عثر عليه من مقابر بمصر فى ذلك العهد . كان أحد الأمراء يضع كساء للرأس مصنوعا من صفائح سميكة من الذهب وهو على درجة كبيرة من الفخامة ومزخرف برسوم دقيقة جداً حفرتها يد الصائغ الماهر ، وكان هذا الأمير يعلق فى حزامه خنجراً من الذهب فى غمد من الذهب المشغول المفرغ ؛ ووضعوا إلى جانبه فى قبره أوانيه الذهبية التى كانت تزين مائدة طعامه أثناء حياته ، وكل هذه الأشياء

شكل : ٤٤ ـ أناء من الفضة لاحد ملوك المدن السومرية

يزين هذا الاناء شريطان يدوران حوله وفيهما زخارف محفورة تمثل أحسن تمثيل الفن الزخرفى فى الحضارة السومرية المبكرة · ونرى فى الشريط العريض نسرا له رأس أسد يقبض بمخلبيه على أسدين يعض كل منهما تيتلا · وهذا التماثل فى ترتيب رسم الحيوانات من أهم ماوصل اليه الفن السومرى · وانتقلت هذه الرموز التى تمثل أزواجا من حيوانات ترسم متقابلة أمام بعضها انتقلت الى أوربا وما زالت باقية حتى الان فى الرسم الزخرفى وفى الرنوك أو فى الرسوم المميزة لبعض الملوك والامم · وقد ظهر النسر فى أعلام ملوك النمسا وبروسيا وغيرها من أمم أوربا وأخيرا وصل الى أمريكا ، وكلها مستمدة من النسر السومرى الذى يرجع تاريخه الى ما قبل خمسة الاف عام ·

التى أخرجتها يد الصائغ ترينا المهارة الفائقة والدقة الفنية كما ترينا أيضا سمو الذوق فى تصميم أشكالها .

وفى الأسرة الأولى فى أور كان الملوك قد وصلوا فى حضارتهم إلى الحد الذى مكنهم من تشييد معبد الآلهة البقرة وتزيينه بتماثيل تستدعى الإعجاب ، إذ وضعوا على الافريز الذى امام المعبد تماثيل ثيران قوية مصنوعة من النحاس المصبوب ، بينما وقف نسر هائل له رأس أسد ناشراً ذراعيه فوق غزالين ـ وكلها من البرونز ـ كأنما يحمى بوابة المعبد . أما الحائط الأمامية فكان يزينها شريط عريض من الزخارف تمثل الرعاة وهم يحلبون الأبقار ، وغيرهم من العمال وهم يصفون اللبن ويصنعون الزبد . كان هذا الافريز فى الأصل موضوعاً فوق لوح ، حرفاه العلوى والسفلى مصنوعان من النحاس ، أما صور الأشخاص والحيوانات والأشياء الأخرى فكانت منحوتة من قطع من المحار أو الحجر الجيرى موضوعة فى أرضية مصنوعة من طبقة رفيعة من الزفت الأسود التى ملأت الفراغ بين خطى النحاس . ولسنا نتوقع من تلك التماثيل الكبيرة التى تزين واجهة البناء أن تكون دقيقة الصنع مثل عمل الصائغ أو حفار الأحجار الثمينـــة ، ولكن النقوش وغيرها من الأشياء المنحوته تظهر لنا الروح الفنية والمهارة الفائقة التى وصل إليها هؤلاء السومريون

وكان التهافت الكبير على عمل الأختام سببا فى تقدم صناعة حفر الأحجار ووصولها إلى درجة رفيعة من التقدم ، فقد كان السومرى يبصم بختمه على الطين اللين لتقوم مقام التوقيع باسمه ، وهذه الاختام الشخصية هى أقدم ما وصل إلينا من أختام وكانت تختلف فى أشكالها فمنها المستدير ومنها البيضاوى الشكل ومنها ما كان مربعا أو مستطيلا . وفى أكثر الأحيان كانوا يرسمون على الظهر المحدودب للختم شكلا لأحد الحيوانات .

ومع مرور الزمن ظهر ختم اسطوانى الشكل ، حل محل النوع القديم من الأختام ، وكانوا يحفرون جوانب هذا الختم الاسطوانى برسوم جميلة وأحيانا يكتبون عليها اسم صاحبها ، وكان تمرير هذا الختم الاسطوانى على الطين اللين يقوم مقام التوقيع، شأنه فى ذلك شأن الختم الآخر، ولم يلبث حفارو الأختام إلا قليلا حتى أصبحوا سادة ثابتى القدم فى صناعتهم وما زال أثرهم باقيا حتى الآن فى فنوننا الزخرفية .

ويبدأ تاريخ سومر — حسب ما وصلت إليه معلوماتنا حتى اليوم — بالعصر الذى تنتمى إليه حضارة أور . فقد أثبتت النقوش أن « مس ـ أنى ـ پادا » ملك له وجود تاريخى ، وهو أمر لم يتيسر لغيره من الملوك الذين حكموا قبله ووردت أسماؤهم فى قوائم الملوك ومن الجائز أن مدنا أخرى كانت مزدهرة فى الوقت نفسه فى سومر وكان تقدمها فى الثقافة لا يقل عن مدينة أور ، ولنضرب مثلا بمدينة « لجش » التى كشفت الحفائر فيها عن عدد من المبانى الهامة شبيهة بمبانى الأسرة الأولى فى « أور » ومن المحتمل أن سقوط أسرة أور الأولى كان نتيجة لحرب بينها وبين « لجش » لأن أحد حكام هذه المدينة يدعى أنه أخضع مدينة أور لسلطانه . ومع ذلك فانه مسطور فى قوائم الملوك « أن ملكة « أوان » استولت على « أور » ، وليس فى تلك القوائم ذكر لحكام « لجش » .

أما مدينة « أوان » فإنها كانت فى أرض « عيلام » ومن المحتمل أن « اور » كانت فى ذلك الوقت تحت حكم أجنبى . من ذلك نرى أن محاولة معرفة الوضع الصحيح لتاريخ سهل « شنعار » ليس من الأمور السهلة ، ولن يتيسر لنا أن نصل إلى الحقيقة أو نرتب معلوماتنا المشوشة إلا بعد أن تمكننا الحفائر من العثور على المدن السومرية التى نجهل أماكنها حتى الآن . وقد أوصلتنا الحفائر التى تمت حتى الآن إلى كثير من المعلومات وعرفنا منها أن جميع الدويلات السومرية كانت تمر

فى فترات غير آمنة يكثر فيها النزاع عندما يهاجمها عدو فيغزوها ويعمن فيها نهباً ، ولكن رغم ذلك كانت هذه الدويلات تقضى أيام السلم بين فترات الحروب لتنهض من كبوتها وتستعيد مجدها .

وانتهت هذه المنازعات الداخلية بين دويلات سومر ـ ولو مؤقتاً ـ عندما هاجمها غزاة ساميون ، فقد بدأ بدو الصحراء يستقرون فى سهل « شنعار » منذ بضعة قرون، ومن المحتمل أن يكون بعضهم قد أتى من الشمال الغربى وسار فى محاذاة نهر الفرات ، لأن عدداً كبيراً منهم استقر فى ذلك المكان الضيق الذى يقترب فيه نهرا دجلة والفرات وتصبح المسافة بينهما نحو عشرين ميلا .

وأخيراً أصبح هذا الجزء من السهل يسمى « بلاد أكد » وأصبح اسم السكان الساميين « الاكدّيين » وهى منطقة ذات موقع تجارى ممتاز على الطريق الموصل بين بلاد الرافدين والبلاد الجبلية التى فى الناحية الشرقية منها وكانت تجارتها مصدر ربح ورفاهية لسكانها .

# الانتصار السامى الأول

## «عصر سرجون»

ظهر فى القرن السادس والعشرين ق . م . فاتح من الجنس السامى فى « أكد » إسمه « سرجون » [١] ، كان ماهراً فى الحرب فتمكن من هزيمة السومريين وجعل من نفسه سيداً على سهل « شنعار » بأكمله . هزم الدويلات السومرية وجنودها حملة الحراب وخضعت له كل البلاد حتى مصب نهرى الدجلة والفرات . ولم يقف الملك سرجون عند هذا الحد بل بعث بجنوده إلى منطقة الخليج الفارسى لمهاجمة عيلام .

وقاد سرجون رجاله الأكديين الذين كانوا يتسلحون بالقسى من جبال عيلام الشرقية ، واتجه بهم غرباً وصعد بمحاذاة نهر الفرات حتى وصل إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط . وهناك قول، بأنه أرسل سفناً لاخضاع جزيرة قبرص وربما حدث صدام بين أسطوله وبين السفن المصرية التى كانت ـ كما سبق أن قلنا ـ تجوب مياه ذلك البحر، وترسو من آن لآخر فى موانىء المدن الفينيقية ، وليس مستحيلا أن تقود الصدفة فى يوم من الأيام إلى اكتشاف بعض الرقم التى كان يتبادلها ملك بلاد الفرات فى ذلك الوقت مع ملك وادى النيل الذى كان يعيش فى قصره الفخم فى منف .

ومن المحتمل جداً أن سرجون واصل زحفه بعد أن وصل البحر الأبيض المتوسط فذهب شمالا متوغلا فى المناطق الشرقية من آسيا الصغرى لكى يحمى التجارة التى كانت مزدهرة إذ ذاك بين مناطق مناجم الفضة فى الشرق الجنوبى من آسيا الصغرى وبين تجار بلاد الرافدين . كان سرجون أول زعيم فى تاريخ الجنس

---

١ ـ يضع بعض الباحثين الملك سرجون الاكدى فى القرن الرابع والعشرين ق.م. ويحددون عام ٢٣٥٠ ق.م. لبدء حكمه ( المعرب )

السامى وكان أول حاكم يؤسس مملكة كبيرة فى غرب آسيا تمتد من عيلام فى الشرق إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط وتصل أيضاً إلى أعالى نهرى دجلة والفرات فى الشمال والغرب . وتركت فتوحاته العظيمة فى غرب آسيا ذكرى لم يقو الزمن على محوها بالرغم من أن حياته انتهت بالقتل على أثر ثورة قامت ضده . ولكن أحد أحفاده وهو « نرام ـ سين » استأنف فتوحاته وأقام آثاره فى الفرات الأعلى .

لم يبق الأكديون بعد استقرارهم فى الهلال الخصيب على ما كانوا عليه من بداوة ، بل أدخلوا تغييرات كثيرة فى أساليب حياتهم . فبنوا لهم مساكن ثابتة وبنوا بيوتاً من الطوب اللبن وتركوا خيامهم وبهذا لم يعد ميسوراً لهم أن ينصبوها فى المساء فى مكان ما ، ليطووها فى الصباح وينتقلوا إلى مكان آخر .

وقد كشفت الحفائر منذ سنين قريبة فى تل « أشنونا » عن المقر الرسمى لأحد الحكام المحليين فى عهد الملوك الأكديين ، فلم يعد ذلك الحاكم يقيم فى خيام كما فعل أجداده ، بل كان يقيم فى بناء فسيح الأركان فيه بهوان ، وكان الجزء الخاص بعائلته مكوناً من صالة كبيرة يليها حجرة أخرى وعدة حجرات للخدم ، وحجرة استقبال وحجرة للنوم ومرحاض وحمام . وعمموا نظام البالوعات فى جميع أجزاء القصر ، وكان المجرى الرئيسى لتصريف المياه مبنياً من الطوب اللبن مقبباً . وفى بعض المنازل الأخرى التى عاش فيها الأكديون ، عثر الباحثون على نوافذ ذات قضبان من الفخار وأبواب ذات عقود ، كما عثروا أيضاً على رسوم معمارية على الرقم ، وهذا دليل قاطع على عنايتهم بأمر البناء .

لم يكن لهؤلاء الأكديين معرفة بالكتابة فاقتبسوا الكتابة المسمارية عن السومريين ليكتبوا بها لغتهم السامية وكانت هذه هى المرة الأولى التى كتبت فيها لغة سامية ، واقتبس الأكديين أيضاً التقويم السومرى والأوزان والمقاييس ونظام الأعداد وطرق التجارة . ولم يقف اقتباسهم من السومريين عند تلك

الأشياء التى تفيدهم فى حياة السلم بل عرفوا منهم أيضاً ما يفيدهم فى الحرب ، فتعلموا كيف يصنعون خوذات من الجلد أو من النحاس تزن الواحدة منها أكثر من رطلين . وكانت تلك الخوذات السومرية أقدم محاولة للانسان لاستخدام المعدن لحماية نفسه فى الحرب ، وكانت هذه الخوذات نقطة الابتداء التى قادت الانسان فيما بعد إلى اختراع المراكب الحربية ذات الدروع المصنوعة من الصلب وأبراج المدافع فى العصور الحديثة .

وكان فن النحت السومرى مصدر إلهام للأكديين . وأمامنا مثل على ذلك وهو لوحة الملك « نرام — سين » المعروفة باسم لوحة النصر ، والتى عثر عليها فى « سوسا » وتوجد الآن فى متحف اللوفر ، وهى التى لايشك أحد فى أنها من أعظم الأعمال الفنية فى العالم القديم ، ويزيد فى أهميتها أنها أقدم عمل فنى عظيم أخرجته يد فنان من الجنس السامى . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح حفارو الأحجار الثمينة من الأكديين منافسين لمن علموهم هذه الصناعة من السومريين ، ومما يدعو إلى الدهشة أن الفنانين الأكديين ركزوا اهتمامهم فى أظهار التفاصيل الدقيقة فى الأختام أكثر من اهتمامهم بالزخارف التى كان يعتنى بها السومريون .

وبعبارة أخرى اقتبس الفاتحون الاكديون حضارة السومريين المغلوبين ، واختلط الساميون بسكان المدن غير الساميين فى سهل بابل ، كما اختلط النورمانديون بالانجليز فى انجلترا ، وفى أوقات الحروب كان الجنود الذين هم من أصل سومرى يحملون حرابهم ودروعهم ويسيرون إلى جانب سادتهم الساميين الذين لا يحملون غير القسى ، وفى أوقات السلم لم يستطع السادة الساميون الاستغناء عن الكتاب السومريين الحاذقين .

# اتحاد السومريين والساميين

## ملوك سومر وأكد

حكمت عائلة سرجون نحو قرن ونصف من الزمان ، ولكنهم رغم نجاحهم فى الحرب ، لم يستطع الملوك الأكديون منع الدسائس والانقسام بين رجال البلاط ، وكان عهدهم مليئاً بالثورات والاغتيالات ، وكان هناك مطالبون كثيرون بالملك إلى درجة جعلت الكاتب الذى كان يحرر قوائم الملوك عند وصوله لإثبات حوادث ذلك العهد ، أن يقع فى حيرة يائسة فلا يزيد عن قوله « من هو الملك ؟ ومن هو غير الملك ؟ »

وزاد الطين بلة أن بعض سكان المنطقة الجبلية غزوا البلاد فى ذلك الوقت التعس ، ولكن انتهى الأمر بهزيمتهم وطردهم ؛ وأصبح فى استطاعة المدن السومرية أن تقف على قدميها مرة أخرى وتعيد سلطانها فى البلاد . وأخيراً نهضت مدينة « أور » مرة أخرى ، وأصبحت لها الزعامة على غيرها . وأصبح للسكان الساميين الذين مضى عليهم عدة قرون فى تلك المدن نفوذ فى التنظيم الجديد ونرى بين أسماء الحكام المحليين كثيرين ممن تدل أسماؤهم على أصلهم السامى ، وأصبحت الأمة الجديدة تدعى باسم « سومر وأكد »

وازدهرت البلاد فى تلك الأيام وبذل الملوك كل ما فى وسعهم ليصلوا إلى أعلى مراتب الحضارة ، فحققوا ما نسميه الحضارة البابلية .

استمر حكم ملوك « سومر وأكد » نحو ثلاثة قرون ، كان القرن الأول منها عصر رفاهية تحت زعامة مدينة أور ، ثم تلاه قرنان مليئان بالتدهور فيما تلا ذلك : وبالرغم من أن الحفائر لم تكشف عن كثير من المدونات الرسمية فى أور ، فإننا نعرف أنها تقدمت

فى فتوحاتها نحو الشمال على طول نهر دجلة حتى شملت فتوحاتها بلاد « أشور » التى تظهر ابتداء من هذا الوقت فى صفحات التاريخ . وأرسلت أور الحملات الحربية شرقا إلى عيلام وغرباً على امتداد الفرات فوصلت إلى البلاد التى كان يقطنها قوم ساميون كانوا قد بدأوا يظهرون أيضاً وهم الذين نعرفهم باسم « الاموريين » .

كانت هذه الفتوحات سبباً فى تجمع بلاد متعددة فى غرب آسيا تحت حكم واحد وكانت النتيجة المترتبة على ذلك هى اتساع نطاق التجارة فى غرب آسيا على صورة لم يسبق لها مثيل .

ونذكر كيف كان الناس فى العهد الحجرى يتاجرون فى الكهرمان والظران وغيرهما ، ثم تطور الناس بعد معرفتهم للزراعة فأصبحت كيلة القمح أو الشعير وحدة لتسهيل التعامل . فإذا اشترى أحد الناس من جار له قارباً يساوى قيمة عشرين كيلة من الشعير ؛ ففى استطاعته أن يعطيه ثوراً قيمته خمسة عشر كيلة ويتبقى عليه بعد ذلك خمسة كيلات يعطيها له .

وأخذت قيمة المعادن تزيد شيئاً فشيئاً وأصبحت وسيلة صالحة للتعامل وأساساً لقيم الأشياء التى يتبادلها الناس وكانت الفضة هى المعدن الذى أخذ يشق طريقه ليصبح فى مكان العملة . وكما كان المصريون القدماء يستعملون حلقات من النحاس منذ عصر الاهرام للمعاملات البسيطة وحلقات من الذهب ذات وزن معين للمعاملات الكبيرة ، فإن البابليين القدماء كانوا يتعاملون بقطع من الفضة تزن الواحدة منها « شكل » أى جزء على ستين من وزن الرطل ( المينا ) وكانت هذه القطع الفضية على هيئة قرص مستدير لا يزيد فى حجمه إلا قليلا عن العملة الفضية التى قيمتها قرشان ، وأصبح ميسوراً للبابليين أن يحددوا الاسعار وقيم الاشياء بما يقابل ثمنها من قطع الفضة .

وكانت قيمة أى وزنة من الفضة ربع نفس الوزنة إذا كانت من الذهب ؛ ولكن قلت قيمة الفضة بعد ذلك عندما كثر تداولها بينهم .

واستلزمت التجارة تحرير كثير من الوثائق والحسابات وكانت كلها تكتب على رقم كثيراً ما عثر عليها الاثريون عند حفرهم لمدن هذا العصر ، وإذا فحصنا هذه الرقم نجد أنهم كانوا يستعملون صيغاً خاصة فى تحرير معاملاتهم التجارية مازلنا نستعملها حتى الآن ، وكانوا بوجه عام أول شعوب العالم الذين جعلوا تحرير المعاملات المالية أساساً فى الاعمال التجارية .

ولم يلزم البابليون أنفسهم باتباع أساليب خاصة فى التجارة فقط ، بل ألزموا أنفسهم أيضاً باتباع قواعد خاصة فى بعض العادات الإجتماعية ، وانتهى بهم الأمر أن أصبحت هذه القواعد قوانين تنظم الحياة بين الناس ويجب عليهم طاعتها .

وأصبحت مدينة أور قوية غنية فى فترة قصيرة بعد أن تمكنت من ضم منطقة واسعة إليها ، منطقة يحكمها قانون ينظم شئونها ، وتزدهر فيها الصلات التجارية مع شعوب أخرى بعيدة عنهم .

ونرى أثر ذلك كله فى المعبد الذى شيده ملوك أور ، والذى كشفت عنه الحفائر حديثاً وثبت منها أنه بنى فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهو دليل مادى قوى على ثراء المدينة فى ذلك العهد .

ولم تكشف الحفائر حتى الآن عن آثار أدبية فى مدينة أور أثناء حكم ملوك سومر وأكد ، ولكننا نكاد نجزم بأن ذلك التطور الأدبى الذى نراه فيما بعد فى المدن الأخرى التى ورثتها ، إنما بدأ فى أيام ملوك أور .

ولم تصل إلى أيدينا الرقم الأصلية التى تحتوى على آداب ذلك العصر ولكن كتب المدارس وبعض الرقم التى كان يتمرن فيها التلاميذ هى التى أبقى عليها الزمن وأصبحت فى أغلب الحالات مصدرنا الوحيد لدراسة بعض الوثائق الأدبية الهامة ، إذ كان فى المدارس رقم تحوى مؤلفات فى الأجرومية وقواميس للاصطلاحات وجداول

للعلامات الكتابية ، وكان فى استطاعة التلاميذ أن يذاكروا الحساب والأجرومية فى الرقم التى فى المدرسة ، وكان يستطيع الواحد منهم أن يذهب إلى الرفوف التى يوضع فوقها الرقم المختلفة ، فيجد أبحاثاً فى الطب ومعالجة الأمراض التى كانوا تعتقدون أن السبب الأساسى لظهورها هو احتلال الشياطين والأرواح الشريرة لجسم الإنسان .

وأراد أهل سومر وأكد أن يجدوا جواباً لما يطرأ على أذهان الناس فى أول جهودهم من تساؤل عن الموت والحياة ، فوضعوا قصصاً بسيطة تحدثوا فيها عن مخاطر الراعى « إتانا » عندما أصاب أغنامه العقم ولم تعد تلد له أحمالا صغيرة . صعد « إتانا » على ظهر نسر واتخذ طريقه نحو السموات باحثاً عن عشب أصل

شكل : ٤٥ ـ اتانا يطير فى السماء

يجلس اتانا على ظهر نسر يطير وقد وضع ذراعه حول عنقه ونرى فوق اتانا يمين الصورة منظر القمر كما نرى فى الارض كلبين ينبحان وفى يسار الصورة نرى راعيا ومعه ثلاث عنزات ، وأمام العنزات يسير شخص اخر وقد رفع ذراعه ، وكلهم بما فيهم الحيوانات ينظرون مدهوشين نحو اتانا الذى رأوه بأعينهم يطير فى السماء

وفى الجزء العلوى من الجهة اليسرى نرى فخاريا يصنع بعض الاوانى وأمامه خباز يصنع خبزا مستديرا .

وهذا الرسم مأخوذ من طبعة أحد الاختام فوق رقيم من الطين

الحياة . وبينما كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق رغبته ، سقط ثانية على الأرض ، وهذه القصة هى أقدم ماعرفناه عن محاولة الإنسان للطيران .

وهناك قصة أخرى ، هى قصة صياد السمك « أداپا » الذى اشتدت به ثورة الغضب، فكسر جناح آلهة الرياح الجنوبية عندما قلبت قاربه فى الماء فدعاه إله السماء إلى عرشه وسأله عما حدث ثم رضى بعد ذلك عنه ، وقدم إلى « أداپا » خبز الحياة وماءها ، ولكن « أداپا » كان سيء الحظ فأعماه الغضب وملأت الشكوك نفسه فرفض أن يأكل ما قدمه الإله له ، وبذلك ضيع على نفسه وعلى بنى الإنسان جميعاً فرصة الحصول على الكنز الأكبر وهو الخلود فى الحياة . ولو أمعنا النظر فى تحليل هذه القصة لوجدنا أنها محاولة لحل لغز الموت الذى يشغل دائماً ذهن البشرية .

وهناك قصة أخرى ، هى قصة البطل « جلجَمِش » الذى خاطر وأتى أعمالا عظيمة ولكنه فشل أيضاً فى الحصول على الخلود .

وفشل كل من حاولوا الوصول إلى سر الخلود ، اللهم إلا واحدا منهم فقط ، وقصته من القصص الغريبة ، نقرأ فيها كيف نجا هو وزوجته فى فلك بعد الطوفان العظيم ، ثم أخذهما الآلهة بعد ذلك إلى النعيم المقيم .

ولم يؤمل ملوك سومر وأكد فى حياة سعيدة بعد الموت شأنهم فى ذلك شأن عامة الناس ، لأن الخلود كان وقفاً على الآلهة دون سواهم .

وعرف العبرانيون فيما بعد بعض هذه القصص ، وخاصة ما كان يختص منها بخلق العالم وبالطوفان ، وزاد على النص الاصلى بعض تعبيرات وتأثيرات من الحياة السومرية والحياة السامية ، ووجدت هذه القصص طريقها إلى كل من اللغتين السامية والسومرية .

وكانت أكثر هذه القصص تكتب باللغة السومرية القديمة التى كانوا يعتبرونها لغة لها قداستها ، واستمرت بينهم كلغة مقدسة مثل اللغة اللاتينية فى وقتنا الحاضر

فى الكنيسة الكاثوليكية ، وبالرغم من زوال النفوذ السياسى للمدن السومرية فإن القصص الدينية ظلوا يكتبونها باللغة السومرية قروناً عديدة بعد أن انصرف الناس عن الكلام بها ، وماتت من بينهم كلغة للتخاطب .

ووصلت الحضارة أثناء حكم ملوك سومر وأكد إلى أعلى مراتبها عندما امتزجت الحضارتان السومرية والأكدية، وأصبحتا حضارة واحدة لها طابعها المميز وهى ما نسميه الحضارة البابلية .

كان هذا العهد هو أعظم العهود فى تطور حياة الانسان فى سهل شنعار الذى كان عهداً مطبوعا بطابع التوسع التجارى . ولم ينس الناس فى مستقبل الأيام ما كانت عليه مدينة أور من فخامة ، وعظمة وعندما أخذ العبرانيون بأسباب الحضارة فى فلسطين كانوا يفخرون بأنهم من نسل إبراهيم الذى كانوا يعتقدون فيه أنه كان من سكان مدينة « أور » عاش فيها فى أواخر أيام العصر الذى كنا نتحدث عنه .

# الانتصار السامى الثانى - عصر حامورابى

## « والعصر التالى له »

لم يكد يبدأ الألف الثانى ق . م . حتى سقطت مملكة سومر وأكد ولم تسترجع المدن السومرية بعد ذلك التاريخ مكانتها فى الزعامة السياسية .

ولم يكن القضاء على دويلة « أور » فى نهايه القرن الثالث والعشرين ق . م راجعا إلى الحروب التى كانت بينها وبين الدويلات المنافسة لها فحسب، بل كان راجعا أيضا إلى غزو أجنبى رزئت به البلاد من الشرق والغرب فى وقت واحد فقد جاء العيلاميون من الشرق واستولوا على المدن السومرية وأسروا آخر ملوك « أور » ونهبوا مقابر الملوك السابقين ، وجاء من الغرب قوم آخرون من الشاميين ، وهم « الأموريون » وبدأوا يغزون بلاد « أكد » وتمكن بعض زعماء الأموريين فى النهاية من فرض سلطانهم على بعض المدن فى الشمال ، وفى منتصف القرن الحادى والعشرين ق . م . نصب أحد هؤلاء الزعماء نفسه ملكا على بابل التى لم تكن حتى ذلك الوقت بلدا له أهمية سياسية كبيرة .

واستطاع هؤلاء الحكام أن يظلوا أصحاب السيادة مدى ثلاثه قرون وجعلوا من مدينتهم « بابل » فى النهاية مركزا هاما تجمعت فيه قوتهم الحربية وحضارتهم وأصبح اسمها علما على سهل شنعار القديم الذى سمى منذ ذلك الوقت باسم « بلاد بابل » .

ولم يتيسر للملوك الأموريين الأوائل الذين حكموا فى بابل ، الاستيلاء على كل بلاد سومر وأكد ، واستمر صراعهم مع العيلاميين وقتا طويلا دون أن يحرزوا نصراً حاسماً عليهم .

وأخيراً جاء اليوم الذى تولى فيه العرش ملك يسمى « حامورابى » وكان ترتيبه السادس من ملوك بابل ، كان ملكا ممتازا قضى السنوات الثلاثين الأولى من حكمه

فى تدعيم مركزه فى الجزء الشمالى من بلاد بابل ، ثم التفت نحو الجنوب فانتصر على الحاكم العيلامى الذى كانت مدن الجنوب تحت إمرته ، وبذلك أصبحت مدينة «بابل» فى عهده المدينة الأولى فى البلاد .

تولى حمورابى العرش فى عام ١٩٤٨ ق . م (١) وظل سبعة وخمسين عاما على العرش ، قضى منها الأعوام الاثنى عشر الأخيرة فى هدوء وطمأنينة بعد أن دانت له الأمور فالتفت نحو توطيد ذلك الملك فأثبت أنه بطل فى السلم ، كما كان بطلا فى الحرب ، وخلد اسمه فى التاريخ على أنه ثانى حاكم عظيم من الجنس السامى بعد الملك سرجون .

رمى حمورابى بناظريه إلى تلك المدن البابلية التى كانت تعج بالحياة وصمم على أن ينظم أمورها على صورة لم تعرفها من قبل فتم له ما أراد . وأهم المصادر التى أمدتنا بالمعلومات عن أعمال هذا الرجل العظيم ، هما أثنان ، يرجع تاريخ كل منهما إلى مايقرب من أربعة آلاف عام ، وأولهما مجموعة خطاباته ، وثانيهما اللوحة العظيمة التى سجل عليها قوانينه . فلأول مرة فى التاريخ نستطيع أن نعرف من تلك الخطابات دقائق الحياة المليئة بالعمل التى كان يحياها أحد الحكام الشرقيين فى آسيا . فترينا تلك الخطابات الملك حمورابى جالسا فى قاعة الحكم فى قصره فى بابل وقد جلس كاتم سره إلى جواره . وأخذ الملك يملى عليه ما يريده من رسائل فى جمل مقتضبة واضحة المعانى تحمل أوامره إلى ولاته الذين عينهم على المدن السومرية بعد أن أصبحت

---

١ — هذا هو التاريخ الذى فضله المؤلف . ولكن هناك آراء مختلفة فى تاريخ تولى حمورابى الملك ويرى « دلابورت » انه تولى الملك فى عام ٢٠٠٣ ق.م.

(Delaporte, Le Proche Orient Asiatique, p. 120 3e Ed. 1948)

ولكن مورتجات وهو من أشد المؤمنين بالتقويم القصير الذى يقل بأكثر من مائتى سنة عن التقويم الطويل يرى أنه تولى حمورابى الملك كان فى عام ١٧٢٨ ق.م.

Scharff-Moortgat, Aegypten und Vorderasien in Altertum. München 1950, p. 183 (العرب)

ولكن ميس مورتجات كان أولبرايت من المؤمنين بوجوب النزول بتاريخ حكم حمورابى الى عام ١٨٠٠ ق.م. بدلا من عام الثلثين.

(Albright, BASOR, 77, 1940).

خاضعة له . فيأخذ كاتم السر قلمه من الكيس الجلدى المعلق فى حزامه ويسطر به فوق الرقيم الصغير سطورا من الكتابة المسمارية . وبعد أن ينتهى الكاتب من عمله يرش الرقيم اللين بحفنة من التراب الجاف ليمنع الغلاف الطينى الذى يلف به من الالتصاق بالكتابة ، ويكتب بعد ذلك عنوان المرسل اليه ثم يبعث بالرقيم ليوضع فى الفرن .

ويأتى الرسل إلى الملك بخطابات مماثلة ، يفتحها كاتم السر الذى يثق فيه سيده فيكسر الأغلفة أمام الملك ويقرأ بصوت مرتفع ما يبعث به موظفوه من جميع أنحاء المملكة . ويملى الملك ردوده فى الحال . فمثلا لقد فاض نهر الفرات وسبب بعض الخسائر وتوقفت الملاحة بين مدينتى « أور » ، « لارسا » ، ووقف صف طويل من السفن لا يستطيع السفر ، فيبعث الملك برده توآ ، آمرا حاكم « لارسا » بتطهير المجرى فى الحال لتواصل السفن سيرها .

ويهتم الملك اهتماما خاصا بقطعان أغنامه ، وكأنما هى الغريزة البدوية ما زالت فى دمه ، فيأمر الموظفين ليجيئوا إلى بابل للاحتفال بقص أصواف الأغنام فى فصل الربيع ، كأنما مثل هذا الحادث عيد من الأعياد الهامة .

ويتقدم التقويم شهرآ كاملا عن الموسم المعتاد ، فيرسل الملك خطابا دوريا إلى جميع الحكام قائلا : « نظرآ لظهور عجز فى السنة ، احتسبوا الشهر الذى يبدأ الآن أنه شهر أيلول الثانى » . ولكنه يلفت نظر الحكام إلى أن جميع الضرائب التى تكون مستحقة فى الشهر الثانى يجب أن تحصل ولا تؤجل إلى الشهر الذى يليه ، لأن تقديم الشهر يجب ألا يتسبب عنه أى تأخير فى الضرائب .

ويلفت الملك نظر جامعى الضرائب المتأخرين فى التحصيل ويذكرهم بشدة إلى ضرورة تأدية واجبهم ، والانتهاء منها دون أى تأخير . ويوافق الملك على توقيع العقاب السريع على موظف متهم بالرشوة ، ويمكننا أن نتصور الملك وقد اكفهر

وجهه وهو يأمر باعتقال ثلاثة من موظفى باب قصره الذين غضب عليهم . وفى أكثر من مرة يذكر الملك حاكم « لارسا » بضرورة تنفيذ ما يصدر اليه من أوامر على أسرع وجه .

وكم من متظلم كان يأتى إلى الملك إذا أعياه نيل حقه على أيدى القضاة فى مدينته . فكان هؤلاء المتظلمون يأتون إلى حمورابى وهم واثقون من حسن معاملته ولا يرد أحدهم خائباً . وها هو رئيس خبازى المعبد ، تصدر اليه أوامر الملك بأن يسافر إلى إلى مدينة « أور » ليعنى بأمر أحد الأعياد الدينية . ولكنه يتظلم من هذا السفر لأنه سيحرمه من وجوده فى بابل عند نظر قضية له ، ويرى حمورابى أن الرجل على حق فيأمر بتأجيل القضية .

ولا يقل اهتمام حمورابى بالشئون الدينية عن اهتمامه بإقامة العدل ، لأن كثيراً من خطاباته التى كان يمليها كانت تختص بممتلكات المعابد وإدارتها التى كان يظهر دائماً عنايته بها .

كانت عينه لاتغمض ولا تنام ، مهتماً بكل شئون البلاد ، قوى الشكيمة ، سريع البت فى الأمور ، أدرك ذلك الملك أن الضرورة تقضى بتوحيد القوانين وقواعد المعاملات التجارية فى البلاد . وكان بعضها يتعارض مع البعض ولهذا جمع كل القوانين والمعاملات المدونة ، سواء كانت لتنظيم التجارة أو الحياة الاجتماعية منذ أيام السومريين القدماء .

بوب حمورابى تلك القوانين وأدخل عليها تحسينات وتعديلات كثيرة كما ألهمته حكمته ثم جمعها كلها فى مجموعة واحدة من القوانين . ولم يكتبها باللغة السومرية مثل بعض القوانين القديمة بل كتبها باللغة السامية التى كان يتكلم بها الأكديون والأموريون ، ثم أمر بنقشها على لوحة عظيمة من الحجر ، نراه فى أعلاها يتلقى القانون من إله والشمس . وضع هذه اللوحة وعلى صفحتها القانون الجديد فى معبد الإله العظيم

« مردوخ » فى مدينة بابل . وأبقى الزمن على هذه اللوحة حتى الآن ، وهى تحوى دون شك أقدم مجموعة من القوانين القديمة . وكثيرا ما يعثر رجال الآثار على بعض أجزاء من قانون حمورابى مكتوبا على رقم كانت تحفظ فى قاعات المحاكم للرجوع اليها .

وينص هذا القانون على أن ينال الأرامل واليتامى والفقراء حقوقهم وألا يقع عليهم ظلم . ولكن فى الوقت ذاته يحتفظ بكثير من الآراء القديمة التى تدل على بساطة القلب ، ومن أظهر ما فيه مبدأ معاقبة المعتدى بأن يوقع عليه الضرر الذى سببه . وهو مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » وهو مبدأ ، كثيراً ، ما تسبب فى الظلم عند تطبيقه تطبيقاً حرفياً . فمثلا إذا انهار منزل وقتل ابن الساكن فيه فإن عقوبة ذلك قتل ابن الشخص الذى بنى البيت ، فيذهب ضحية ذلك شخص برىء هو الابن المسكين .

ورأى حمورابى ضرورة تنظيم أمور الزواج والاتفاق الشرعى بين الرجل والمرأة ، فأفسح لهذا الموضوع مكانا فى قوانينه . فاحتلت المرأة مكانا ممتازا فى بلاد بابل القديمة ـ كما كان شأنها أيضاً فى مصر ، وكان فى استطاعة المرأة أن تمارس التجارة لحسابها الخاص ، وكان من بين النساء من احترفت مهنة الكتابة ، وكانت البنات تذهب إلى المدارس لتتلقى العلم جنباً إلى جنب مع الصبية .

وجاءت إصلاحات حمورابى بثمراتها فانتعشت البلاد انتعاشاً لم تعرفه من قبل . وكانت حاصلات البلاد الزراعية وخاصة الحبوب والبلح هى المصدر الهام للثروة ، ولكن كان لدى السكان أيضاً قطعان من الأغنام والماشية تمدهم بالجلد والصوف ،

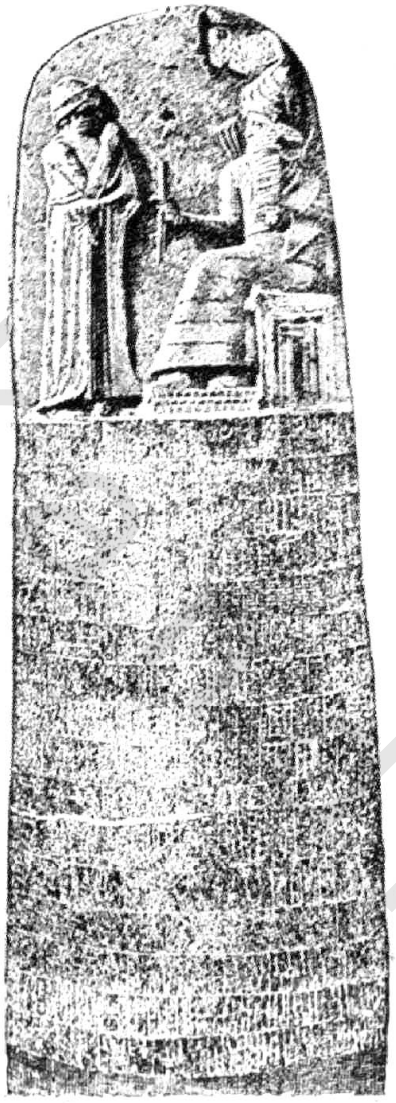

شكل : ٤٦ ـ قوانين حمورابى ـ أقدم مجموعات القوانين ٠

هذه القوانين منقوشة حول عامود من حجر الديوريت ارتفاعه ثمانية أقدام تقريبا ومجموع الكتابة أكثر من ٣٦٠٠ سطرا ٠ وفوق الكتابة نرى حمورابى الى اليسار واقفا أمام اله الشمس الجالس فى الناحية اليمنى يتلقى منه القوانين

obeikandl.com

وأصبحت الأخيرة صناعة من الصناعات الهامة لأن الملابس الصوفية كانت منتشرة الاستعمال بين سكان آسيا الغربية .

كان أهل بابل فى ذلك العهد يصنعون آلاتهم وأسلحتهم من البرونز ، ولم يكونوا ليجهلوا وجود الحديد وإنما كان هذا المعدن نادراً إلى درجة لم يجعل له أى شأن هام فى الصناعة ، ولم يعم استعمال هذا المعدن إلا بعد ألف سنة أخرى .

وحافظ الجيش على هدوء البلاد وعلى سلامة حدودها ، وكانت قوافل الحمير التى تحمل تجارة البابليين تذهب من مدينة إلى أخرى ومن قوم إلى آخرين وهى آمنة مطمئنة . وكانت هذه الأسفار أمراً عادياً فى بلاد الفرات الأعلى فنشأت مراكز للتجارة ، وهذه مدينة من مدن الفرات أطلقوا عليها اسم « هرّان » أو « خرّان » وهى مشتقة من الكلمة البابلية « خرّانو » ومعناها « رحلة » . وكثيراً ما كانت بضائع التجار تملأ الأحواش مكدسة فى الغرائر ، وقد ميزوا كل حمل منها بلوحة صغيرة من الطين عليها اسم صاحبها . وكانوا يلقون بهذه العلامات التجارية عند فتح تلك الغرائر ، ويعثر الحفارون على كثير منها الآن فى خرائب المدن ونرى على أحد وجهيها اسم التاجر وعلى الوجه الآخر طبعة الحبل الذى كان يحزم الغرارة .

ووصلت هذه العلامات التجارية وكشوف الحساب التى كانت تصحب الأحمال ، إلى مناطق بعيدة ، وكان يقرؤها التجار المحليون فى المدن السورية وفى البلاد الواقعة خلف ممرات الجبال فى الشمال . وهكذا أخذت الكتابة المسمارية البابلية تشق طريقها تدريجياً فى بلاد آسيا الغربية وبدأ تجار سوريا وكپادوسيا Cappadocia فى آسيا الصغرى يكتبون كشوف الحساب والمطالبات التجارية وخطاباتهم على الرقم كما كان يفعل البابليون . وانتشر نفوذ حمورابى التجارى فى غرب آسيا ، وظلت ذكراه بعد موته بأكثر من ألف سنة يرددها

سكان سوريا وفلسطين فى أيام العبرانيين (١)

وأصبحت طبقة التجار قوية وكانوا يسمون فى بعض الأماكن «الحكام» ولكن المعابد وما لها من موارد عظيمة كانت مركز الحياة التجارية ، إذ كانت مهيمنة على أراض كثيرة ، وكانت لها تجارة واسعة كما كانت تقرض النقود فان إقراض النقود كان أمراً عادياً ولكن أسعار الفائدة كانت مرتفعة ، إذ كان سعرها على قروض الفضة عشرين فى المائة فى السنة تدفع على أقساط شهرية ، ولما كثر تداول الفضة وأصبحت كثيرة فى أيدى الناس قلت قيمتها ، وأصبح استعمال الذهب قليلا ونادرا وكانت قيمته من اثنتى عشرة إلى خمس عشرة مرة من قيمة الفضة .

وصارت المصالح التجارية هى المصالح ذات الأثر الفعال فى الحياة البابلية ، بل ووصل أثرها إلى الدين أيضاً ، فكانت المعابد كما ذكرنا مكانة كبيرة فى الحياة التجارية ولم تسع الديانة لمطالبة الأغنياء والأقوياء بما عليهم من حقوق للفقراء والمساكين ويحتم علينا الأنصاف أن نذكر أن طقوس العبادة كانت تحوى بعض صلوات وأدعية اعترافاً بوجود فكرة الخطيئة وضآلة الإنسان ، ولكن كانت المنفعة الكبرى للديانة تتركز فى أن الانسان كان يستطيع أن يحصل من الآلهة على ما يريده من منافع حقيقية وأن يتجنب غضبها .

وظل الناس يعبدون الآلهة السومرية القديمة ولكن زعامة بابل السياسية مكنت سكان تلك المدينة من وضع إلههم السامى « مردوخ » فوق جميع الآلهة الأخرى ، وزجوا باسمه فى جميع الأساطير القديمة ، فظهر اسم « مردوخ » مكان أسماء بعض الآلهة السومريين القدماء الذين كانوا يلعبون أدواراً هامة فى تلك الأساطير .

---

١ — انظر سفر التكوين حيث ورد ذكر « أمرافيل » والمظنون أنه تحريف لاسم حمورابى كما نطق به أهل غرب آسيا

وفى الوقت عينه احتلت الإلهة « عشتر » السامية مكانها كالآلهة الرئيسية فى أملاك بابل ، وكانت « عشتر » العظيمة آلهة للحب . وانتقلت عبادتها بعد ذلك إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأطلق عليها اليونانيون اسم « أفروديت » .

ومن الأشياء التى منحها الآلهة موهبة التنبؤ بالغيب . وكان هذا الفن يسمى التنجيم . وكان الكاهن الذى يقوم به يطلقون عليه اسم المنجم .

ومنذ العصور القديمة ، فى عهد ملوك سومر وأكد ، كان المنجم الماهر يستطيع أن يفسر العلامات الغريبة فى كبد شاة تذبح كقربان . وكان السائل يؤمن أن فى استطاعة هذا المنجم أن يحدثه عما يكنه له الغيب ، وكان فى استطاعة المنجم أن ينظر إلى أماكن النجوم والكواكب ويعرف منها ماذا أمر به الآلهة ليحدث فى مستقبل الأيام ، وأخذت هذه الأساليب فى فن التنجيم طريقها إلى الغرب فانتشرت فيه ، فكانت قراءة الأكباد أمراً شائعاً فى روما فيما بعد ، وتطورت قراءة النجوم فيما بعد فى أيام الكلدانيين وصارت علماً قائماً بذاته هو علم التنجيم الذى كان أساساً لعلم الفلك .

ولم يكن من الميسور تمرين الناس على أمثال هذه الأعمال فى المعابد أو إعداد الكتاب للأعمال التجارية أو لإدارة الحكومة دون وجود المدارس التى كانت فى المعابد أو كانت ملحقة بها . وكشفت الأبحاث الأثرية عن بناء مدرسة من عهد حمورابى ، وعثر فى بقاياها على الرقم التى كان يتمرن فيها الصبية والبنات ملقاة على أرض الحجرات بعد أن ظلت فى مكانها قرابة أربعة آلاف سنة ، وفى هذه الرقم نرى كيف كان الطفل يقضى الوقت الطويل الشاق فى التعليم الذى كان يبدؤه بفهم وكتابة نحو ستمائة علامة مختلفة .

كان اللوح الذى يتمرن عليه التلميذ مصنوعاً من الطين اللبن وكان باستطاعته أن يمحو ما كتبه إذا مرر عليه قطعة من الخشب أو الحجر . وكان التلميذ يقبض على

قلمه بين أصابعه ويخط سطورا طويلة من ضغطات مفردة ، يكتبها فى أوضاع ثلاثة أفقية ورأسية ومائلة . فإذا ما تعلم ذلك وأصبح يجيد استعمال قلمه علمه مدرسه كيف يكتب العلامات التى كانت كل منها تتكون من أكثر من ضغطة واحدة ، وكانت الخطوة التالية بعد ذلك هى أن التلميذ يتعلم كتابة الكلمات ثم الجمل القصيرة . ومما كان يكتبه هؤلاء التلاميذ القدماء حكم وأمثال قيمة ، وهذا واحد منها يبين قيمة تقدير البابليين لفن الكتابة : « إن من يتفوق فى كتابة الرقم سيضىء كالشمس » ، ومثل هذا كانوا يشجعون الصبية أثناء عملهم الطويل الشاق فى تعلم الكتابة .

ولم يصل إلينا إلا القليل النادر من الأعمال الفنية أو المعمارية التى ازدهرت فى ذلك العصر ، ويرجع ذلك إلى تحطيم مدينة حمورابى التى لم يبق منها قالب طوب واحد فى مكانه ، ولكننا نعرف مما كشفت عنه الحفائر فى المدن الأخرى أن بعض القواعد المعمارية التى كانت معروفة فى عهد السومريين ظلت متبعة بعد أن دخل عليها شىء من التطور ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك فإننا ما زلنا حتى الآن نستعمل بعضها ، ولنضرب مثلا بالعقد الذى رأينا أنه كان معروفاً فى مدينة « أور » وأنهم استعملوه فى بناء مقابر ملوكها الأوائل . وكذلك المصارف المقببة التى ظهرت فى العصر الأكدى . وفى عهد ملوك سومر وأكد كانت بوابات المنازل الخاصة مبنية على طراز العقد ، فلما جاء عصر الإمبراطورية الأشورية أصبح للعقد شأن بارز فى هندسة واجهة القصر الملكى .

كان أهم تجديد معمارى فى العهد المبكر للمملكة البابلية هو انتشار المعبد ذى البرج ، ومع ظهور هذا النوع من المبانى ظهرت أيضاً فكرة تزيين الأسوار ببناء دعامات لها على مسافات متقاربة منتظمة بحيث تبدو فيها نتوء يليه انخفاض ثم نتوء وهكذا recessed panel ، وكان هذا الطراز معروفاً للبنائين فى بلاد الرافدين منذ عهد السومريين ، كما تراه أيضاً فى مبانى الطوب لدى كثير من شعوب الغرب .

وأقام البابليون الأول أعمدة من الطوب أو الخشب غطوها بالفسيفساء ، ولكنهم لم يكثروا من الأعمدة بوجه عام بل كان استعمالها محدوداً فى طرزهم المعمارية .

ولم يخلف عصر حمورابى وراءه رسوماً أو تماثيل فنية كثيرة . فنحن نرى النقش المرسوم على الجزء العلوى من قانون حمورابى على حجر الديوريت ويمثل الملك وهو يتلقى القوانين من إله الشمس ، فنرى كيف نجح الفنان فى إعطاء هذا النقش مسحة من الهيبة والتأثير . ولكننا نرى أيضاً أن البابليين كانوا يلفون أجسامهم فى ملابس صوفية ثقيلة ولهذا لم يتيسر للمثال الفرصة لإظهار محاسن الجسم الإنسانى .

وإذا أردنا التحقق من نجاح المثالين فى إعطاء صورة صحيحة للشبه فإننا لانستطيع ذلك، لأن تماثيل الأفراد تكاد تكون متماثلة لا فرق بين واحد وآخر . وتضاءلت أيضاً دقة صناعة الأختام بعد أن بلغت أوجها فى عصر الملك سرجون . وبالرغم من الإقبال على هذه الأختام كسلعة تجارية فإن صناعتها فى عصر حمورابى كانت قد بدأت فى الانحطاط .

وكأن هذا الانحطاط فى الفن نذيراً لما كان على وشك الحدوث . فإن الامة البابلية التى أحسن حمورابى تنظيمها لم تكد تعمر طويلا بعد وفاته ، فقد نزل قوم غزاة من الشرق على سهل بابل ، وكان وفودهم تدريجياً فى هجرات متتالية إلى بلاد الهلال الخصيب وخاصة بعد عام ١٩٠٠ ق. م . واستقروا أخيراً فى بابل . وهؤلاء القوم هم « الكاسّيون » الذين لم يستطع خلفاء حمورابى صدهم .

وفى الوقت الذى زاد فيه عدد السكان الكاسيين [١] إلى درجة كبيرة منيت

---

١ — من المحتمل أن يكون الكاسيون هم الذين أحضروا كثيرا من الخيل معهم الى بلاد بابل . ويجب الا نغرب عن أذهاننا أن الخيل لم تظهر فى مصر الا بعد ذلك الوقت ببضعة قرون .

بلاد بابل لسوء حظها بغزاة آخرين جاءوا من الشمال الغربى وتقدموا جنوباً فى محاذاة نهرى الدجلة والفرات حتى احتلوا بابل ونقلوا ما غنموه منها إلى بلادهم .

هؤلاء الغزاة هم « الخيتيون » ، الذين لم يقصدوا من غزوهم لبلاد الرافدين احتلالها أو استيطانها بل نهبها فى هجمة سريعة عادوا بعدها إلى بلادهم وقد قضوا على آخر ملك من نسل حمورابى .

فلما انسحب الخيتيون من بلاد بابل ، وكان ذلك حوالى ١٧٥٠ ق.م لم يجد الكاسيون صعوبة فى فرض سيادتهم على البلاد ، وكان انتصارهم إيذاناً بزوال تقدم البابليين فى حضارتهم . وهوت بابل إلى الحضيض وظلت فى غفوتها دون أن تفيق حتى ظهرت كلديا على صفحة التاريخ . وهكذا انتهى أول الفصول العظيمة فى تاريخ بلاد النهرين ، أما الفصل الثانى فإن مسرح حوادثه لم يقع فى بابل بل انتقل شمالا إلى المنطقة التى تعرف باسم « أشور » والتى كانت أثناء حكم مملكة بابل إحدى الدويلات الصغيرة ثم أخذت تتقدم حتى وصلت فى النهاية إلى أن تكون قوة عالمية .